الفصل الأول

الدوافع ...

١ ــ بداية وإعراض

فى الحقيقة ؛ لم أقصد بهذا الفصل أى سيرة ذاتية خاصة ، ولكن يصبح الكلام عن تجربة معينة أمرا حتميا ولا مفر منه ، خصوصا إذا ما كانت التجربة تعكس إتجاها فكريا عاما ، لا يرتبط بفكر الكاتب فحسب ، أو بالفكر المحلى لمجتمع ما فحسب ، بل يرتبط ارتباطا وثيقا بالفكر العالمى للإنسان ووجوده على سطح هذا الكوكب المحدود ، وخصوصا إذا ما كانت التجربة ــ بأخطائها ــ قابلة للتكرار لمفردات الوجود الإنساني ، ما لم نلق عليها الضوء الكافي لتجنب الوقوع فيها مرات ومرات وبغير نهاية .

والغريب أنه على الرغم من التقدم العلمى والتقدم التكنولوجى الذى أحرزه الإنسان فى كل المجالات تقريبا ، وعلى الرغم ــ كذلك ــ من تحسن إدراكات الإنسان بدرجة ملحوظة وفهمه الآن للنظريات العلمية الكبرى التى قاربت أن تدخل ، أو دخلت فعلا ، جذورها ونتائجها فى الحيز الغيبى ، أو ما يسمى بحيز الخيال العلمى ــ كما سنرى ــ إلا أننا نجد هذا الإنسان يقف يغلفه العجز الكامل أمام القضية الدينية ، فلا يزال لا يستطيع حتى الآن أن يجزم بصحتها أو خطئها ، أو حتى وجودها من حيث المبدأ أو عدم وجودها .

والغريب كذلك أننا ما زلنا ننظر إلى " القضية الدينية " على أنها " قضية غيبية " لا يمكن التثبت من صدقها ، كما يمكن أن تلعب الأسطورة فيها والخرافة [١] دورا رئيسيا ، بل والأكثر غرابة أن نظل على هذا الإعتقاد ..!! ونحن نقف في بدايات القرن الواحد والعشرين .

---

[١] **عادة ما تقوم الموسوعات العلمية الغربية بتصنيف " الدين وعلم الأساطير : Religion and Mythology " على أنهما من الموضوعات ذات الطابع المشترك ، لذا يتم تصنيفهم فى نفس القسم من المعارف الذى يحمل هذا العنوان . أنظر على سبيل المثال : " قاموس وبستر الموسوعى المطول : Webester's Encyclopedic Unabridged Dictionary " ؛ ص : ١٧٠٧ .**

وتعود الذاكرة إلى صدر الشباب ، حيث تبدأ القصة ، عندما كنا طلبة فى كلية الهندسة [٢] ، حيث الفكر والطموح لا يحدهما حواجز الزمان والمكان .. والقضايا العلمية [٣] تترى من حولنا لتعلن عن الدقة البالغة للعلم ، ولتأخذ مكان الصدارة فى الفكر ، وتحتل الحيز الأكبر من النفس ، ويصبح المنطق العلمى هو المنطق المسيطر ــ على المرء ــ حتى على الأسلوب النمطى للحياة اليومية ، ويدفع هذا بالقضايا الإيمانية والتى تؤخذ كمسلمات بدون تمحيص إلى خلفية الصورة ، حتى يكاد يصعب على المرء أن يتبين ملامحها على مر الوقت ، وكانت العبادة فى ذلك الوقت تمارس بأبسط مفهوم لها ، وهو مفهوم الوراثة .

وكانت إحدى سمات تلك الفترة [٤] الهجوم الضارى على الدين ، كما كانت الإتجاهات الفكرية السائدة فى ذلك الوقت تتجه إلى اتهام الدين بكل ما هو تخلف وقهرى ، بينما التحرر من الدين معناه التقدم الحضارى بأوسع معانيه ، بل والسعادة المرجوة فى هذا الوجود على نحو مطلق .

فبيت الداء هو الدين ، حيث إنه مصدر كل قصور وكل بلاء ، بل وأصبح عبئا ثقيلا على كاهلنا أصابنا منه الإرهاق ، بل وأصبح لزاما علينا كذلك أن نحزم أمرنا للتخلص منه نهائيا . وربما كان التردد ، أو ربما كانت تنقصنا الجرأة أو الشجاعة الكافية لاتخاذ مثل هذا القرار الحاسم . وقد أصبح الدين بهذا المفهوم تراثا فكريا متخلفا ومتوارثا عن الآباء والأجداد ، وارتبط ارتباطا مباشرا بمفهوم الطفولة الفكرية للإنسان وبداية نشأته على سطح هذا الكوكب ، كوكب الأرض . وقد وقعنا ــ فى تلك الفترة ــ أسرى لإعلام سائد لهذا المفهوم ، بل إن بعض المجلات الكبرى كانت تخصص مساحات كافية للهجوم الضارى على الديانة الإسلامية ، وأصبح التندر ــ بالألقاب ــ على الأنماط الدينية ورجال الدين من الأمور الشائعة فى ذلك الوقت .

وكنا لا نتصور ــ نحن الطلبة ــ أن رجال الفكر قد يخطئون فى القضايا الهامة أو القضايا المصيرية ، فمثل هذه القضايا يجب ألا ترسل نتائجها على عواهنها بدون التمحيص

---

[٢] جامعة القاهرة .

[٣] تستخدم أحيانا " القضية العلمية " ــ هنا ــ بنفس معنى " القضية الفيزيائية " ، وإن كان كلمة " علم " لها معنى أعم وأشمل من كلمة " فيزياء " ، فالعلم يشمل الفيزياء وغير الفيزياء ؛ مثل العلوم الأخرى ، كعلم الرياضيات وعلم الكيمياء وعلم الأحياء وعلم الاجتماع وعلم الإقتصاد .. إلى آخره .

[٤] كان هذا في ستينات القرن العشرين ، وليس للتاريخ هنا أى أهميه تذكر ، فالقصة متكررة ، وما زال الهجوم قائما على الدين فى صور المذاهب الوضعية ، ولن ينتهى الإنسان من هذا ما لم يتنبه إلى معنى الدين وحقيقة وجوده ومصيره ، ومعرفة الغايات من خلقه .

الكافى حتى لا تغرر بها أجيال حالية وتضل بها أجيال قادمة . فنحن الطلبة قد تعودنا على الاحترام الزائد للأساتذة ، فهم قدوتنا فى العلم ، وبالتالى فهم قدوتنا فى التفكير . وما انتهوا إليه بشأن الدين هو قطعا الصواب ، وكان هذا ــ كما يبدو لنا فى ذلك الوقت ــ هو الناتج الطبيعى بل والحتمى للتطور الحضارى للإنسان ، ولم لا .. وقد فهمنا منهم أن " **القضية الدينية** " هى " **قضية غيبية** " فى المقام الأول والأخير ، والخرافات فيها هى الفكر السائد ، كما كانوا يعرفون الدين بأنه " **عهد الطفولة الفكرية للبشرية** " أو بمعنى آخر إنه المحاولات الأولى للبشرية لشرح العالم الفيزيائى المحيط بنا من خلال الأسطورة والخرافة . حيث كان الإنسان البدائى يرى الظواهر الطبيعية ويحتار فى تفسيرها ، ولا يفهم أسباب حدوثها ، لهذا كان ينسبها إلى إرادة إلهية (مثل إرادته) هى التى تتحكم فى سير الظاهرة وحدوثها .

أما بعد التقدم الحالى ، فإن الإنسان الحديث يستطيع الوقوف على التفاصيل الدقيقة لحدوث الظواهر الطبيعية وأسبابها بدرجة كافية من الدقة ، بل والأكثر من هذا ، إن الإنسان الحديث استطاع السيطرة والتحكم فى هذه الظواهر وتسخيرها لخدمته ، وهذا ما نلمس آثاره الواضحة فى تقدمنا العلمى والتكنولوجى الذى نعاصره الآن . وبهذا انتفت الحاجة إلى فكر الإرادات التى كانت تنسب إليها الظواهر الطبيعية . وبهذا خلصوا إلى أن الدين هو " **حيز الإرادات** " الخفية أو الإلهية التى تتحكم فى سير الظواهر الطبيعية ، بينما يصبح العلم هو " **حيز الأسباب** " لشرح وتفسير وتسخير هذا العالم الزاخر بهذه الظواهر الطبيعية .

وبناء على هذا فكلما تعرفنا على سبب ظاهرة ما ، نقص " **حيز الإرادات** " واحدة ، بينما ــ فى الجانب الآخر ــ زاد " **حيز الأسباب** " واحدة ، وبذلك فإن حيز الدين آخذ فى التقلص أو التناقص ، بينما حيز العلم ــ فى الجانب الآخر ــ آخذ فى التزايد حتى يفرغ الدين من المضامين الخاصة به ، بعد غاية تقدمنا العلمى .

ولهذا يصبح الدين قضية محتوم بفنائها ــ شئنا هذا أم أبينا ــ فالتقدم العلمى أمر واقع ومستمر ولا مفر منه ، وسوف يفرغ القضية الدينية فى النهاية من مضامينها المملوءة بالإرادات ، وبذلك يتلاشى الدين تدريجيا من الوجود حتى بدون عناء التصدى له ، أو التصادم معه .

وعلى الرغم من سذاجة هذا الفكر ــ كما سنرى حالا ــ الذى يحوى قدرا كبيرا من ضعف النضوج الفكرى للقائل به ، من جانب ، كما يحوى عدم إدراك أو فهم الإنسان لمعنى الدين ، من جانب آخر ؛ إلا أنه كان يلقى صدى لا بأس به فى نفوسنا ، نظرا لجهلنا المحلى فى

ذلك الوقت ، هذا إلى جانب أننا كنا ننظر إلى العلم بقدسية زائدة لاستدلالاته الرياضية المثيرة ، وتنبؤاته الدقيقة التى لا تخطئ ..

فالعلم لدينا يعنى الكثير ، لأن كل قضاياه يقينية لا يشوبها أدنى شك ، بينما الدين مازال يعنى لدينا فكر القضايا الغيبية حيث الأسطورة والخرافة هى التى يمكن أن **تلعب الدور الرئيسى والحاسم فيه ، وحيث لا يمكن القطع بصحة ما يحويه من مضامين .**

وفى الحقيقة ، كان هذا الفكر هو ترديد لما قال به " **أوجيست كونت** [٥] " زعيم الفلسفة الوضعية الملحدة (أو المذهب الواقعى) فى العالم ومؤسسها ، حيث كان يقول **إن قوانين العلم التجريبى تغنى عن الإيمان بالله** ، وأن هذه القوانين تدل على أن الطبيعة لها وجـود مكتف بذاته . ويضيف كونت بأن التفكير البشرى مر بمراحل ثلاث أسماها باسم " **قانون الأحوال الثلاثة** " وهى على التوالى :

١ ــ الحالة اللاهوتية أو الدينية [٦] .

---

[٥] أوجيست كونت : **Auguste Comte** (١٧٩٨ - ١٨٥٧) : رياضى وفيلسوف فرنسى . مؤسس " الفلسفة الوضعية " ، أو " الفلسفة الواقعية " أو " المذهب الواقعى " أو " الوضعية المنطقية : **Logical Positivism** " بالتعبير الحديث . وقد ولد كونت بمونتلبتى بفرنسا ، من أسرة شديدة التعلق بالمسيحية الكاثوليكية ، ولكنه سرعان ما فقد الإيمان بهذه الديانة منذ الرابعة عشرة من عمره ، ثم نادى بـــ " المذهب الواقعى " ، الذى يعنى أن الفكر الإنسانى لا يدرك سوى الظواهر الواقعة وما بينها من علاقات وأحاسيس فقط ، ولا يدرك غير ذلك . وينسب أيضا إلى كونت تأسيس علم الإجتماع وفصله عن الفلسفة . (تاريخ الفلسفة الحديثة ؛ يوسف كرم . دار المعارف ؛ ص : ٣١٦ / ٣٢٩) .

[٦] ففى الحالة اللاهوتية : كان دأب العقل البحث عن كنه الكائنات وأصلها ومصيرها ، وتدرج فى هذا البحث إلى درجات ثلاث : الدرجة الأولى هى " الفيتشية : **Fetishism** " (أو التقديس الأعمى) ؛ وفيها يضيف العقل إلى الكائنات الحية حياة روحية شبيهة بحياة الإنسان . وتأتى الدرجة الثانية بتعدد الآلهة ، حيث يسلب فيها ــ العقل ــ الكائنات الطبيعية ما كان قد خلع عليها من حياة ، ويضيف أفعالها إلى موجودات أخرى غير منظورة تؤلف عالما علويا . أما الدرجة الثالثة ، فهى توحيد كثرة الآلهة فى إله واحد مفارق . وفى هذه الحالة تتسع الشقة ويزداد التضاد . ثم تأتى الحالة الميتافيزيقية : ويرمى فيها العقل كذلك إلى إستنكاه صميم الأشياء ومصيرها أيضا ، ولكنه يستبدل المعان المطلقة السابقة بعلل ذاتية يتوهم فيها العقل بأنها تقبع فى باطن الأشياء ، وما هى إلا معان مجردة قد جسمها له الخيال . وأخيرا الحالة الواقعية : وفيها يدرك العقل إمتناع الحصول على معارف مطلقة ، فيقصر همه على تعرف الظواهر واستكشاف قوانينها . ويقول كونت بأن الحالات الثلاث السابقة تتعاقب فى كل إنسان . ففى الحداثة نقنع بسهولة بالتفسيرات اللاهوتية ، وفى الشباب نقتضى عللا ذاتية ، وفى سن النضج نعول على الواقع .

٢ ــ الحالة الميتافيزيقية .
٣ ــ الحالة العلمية أو الوضعية .

وإنه بمنطق التطور التاريخى الحاسم يصبح الدين والميتافيزيقا مجرد خرافات ورثناها من القرون السابقة ، وقضت عليها حاليا سيادة العلم الحتمية ، وأى محاولة لإحيائها أو الدفاع عنها تعتبر عملا من الأعمال المضادة لطبائع الأشياء . ويضيف **أوجيست كونت**:

" إن الاعتقاد فى ذوات عاقلة أو إرادات عليا لم يكن إلا تصورا يخفى وراءه جهلنا بالأسباب الطبيعية ، وإن العالم الطبيعى لا يبقى فراغا يسده الاعتقاد بوجود إله ، ولا يبقى سببا يدفعنا إلى الإيمان " .

وبهذا ينتهى **كونت** إلى رفض الدين كلية ، ثم سرعان ما يتناقض مع نفسه ، ثم ينتهى إلى وضع دين جديد أسماه " **دين الإنسانية** [٧] " ..!! هكذا ببساطة شديدة ..!!

وبديهى إن المتأمل فى مثل هذا السلوك ينتهى إلى أن تجربة أوجيست كونت مع الدين الشائع فى مجتمعه ، أى الديانة المسيحية ، هى تجربة فاشلة أصابته بالإحباط ، وانعكس آثارها لديه ، ولهذا قام برفض الفكر الدينى كله ، ولكنه مع ذلك لم يستطع أن ينفصل عن التدين الفطرى لديه أو الحاجة إلى التدين ، لذا نراه يلجأ إلى وضع دين آخر أسماه " **دين الإنسانية** ".

---

[٧] يقول أوجيست كونت بأن الدين هو خاصية النوع الإنسانى ، ولهذا فإن الإنسان فى حاجة دائما إلى التدين . ولهذا نادى كونت بديانة جديدة سماها " الديانة الإنسانية " . حيث يقول بأنها " ديانة واقعية " ، تكون فيها " الإنسانية " هى " الموجود الأعظم " . ويكون فيها الفلاسفة بمثابة الدماغ لهذا الموجود الأعظم ، وتكون النساء بمثابة أعضاء العاطفة ، وواجبهن إثارة عواطف الحنان والغيرة الكفيلة باستكمال " الموجود الأعظم " . وبعدهن يجىء رجال الصناعة والمـال وهم بمثـابة أعضاء التغذية لهذا الموجود الأعظم . وأخيرا يجىء العمال وهم بمثابة أعضاء الحركة له .

وتقدم العبادة لهذا " الموجود الأعظم " فى صور مشتركة وفردية . فالعبادة المشتركة تكون فى صورة الأعياد التذكارية تكريما للمحسنين إلى الإنسانية ، وبهذا تمتلئ الإنسانية ــ أى الموجود الأعظم ــ بالسرور والعرفان بالجميل . وفى العبادة الفردية يتخذ الأشخاص نماذج للمثل الأعلى . ولما كانت كرامة الفرد جزءا من " الموجود الأعظم " ، لذا لزم أن يوجه الفرد أفكاره وأفعاله إلى صيانة هذا " الموجود الأعظم " وإبلاغه حد الكمال ، كما يجب أن يصبح شعار الجميع هو " الحياة لأجل الغير " . وهذه هى الديانة الإنسانية التى مسخ بها كونت الديانة المسيحية ، ونصب نفسه كاهنها الأكبر . ووضع لها شعارا : المحبة كمبدأ ، والنظام كأساس ، والتقدم كغاية (ويمكن مقارنة هذا الشعار بالشعار المسيحى : الله محبة ، الله فداء ، الله خلاص) .
[" تاريخ الفلسفة الحديثة " ، يوسف كرم ، دار المعارف . ص : ٣١٦/٣٢٩]

إن **الفلسفة الوضعية المنطقية** ــ كما سنرى حالا ــ هى فكر طفولى إلى حد كبير ، يرضى السذج والشباب المراهق (**Teenagers**) بالدرجة الأولى ، فإذا ما بلغ الفرد درجة متواضعة ، وليس درجة عالية ، من النضوج الفكرى أو العلم فإنه سرعان ما يتنبه إلى ضحالة مثل هذا الفكر وضعفه . وعلى الرغم من ذلك ــ كما سبق وأن ذكرت ــ فقد كان هذا الفكر يلقى صدى لا بأس به فى نفوسنا فى تلك الفترة .

وكان لى بالكلية ، زميل نابه الفكر أميل إلى الثقة فيه لسعة أفقه وذكائه ، ومنطقه العلمى ، حيث كانت تربطنا بعض اللقاءات العابرة لمناقشة بعض القضايا العلمية والقضايا العامة ، حيث كان يجنح بنا الحديث أحيانا للخوض فى القضايا الدينية ومدى جدواها ، و كنا عادة ما نفترق بدون حماس لرأى ما حولها .

وفى أحد الأيام استوقفنى زميلى هذا .. فجأة .. وبدون حتى أن أنتبه لوجوده ، وكانت على وجهه ابتسامة باهتة تحمل كل معانى التهكم والسخرية ، ولا يكاد يتبينها غيرى ، وبدون مقدمات .. وكما لو كنا نكمل حديثا مرسلا وصل إلى مداه .. وكان علينا أن ننهيه بسرعة ونغادر المكان لضيق الوقت واللحاق بالمحاضرات .. وبادرنى ..

قائلا : ألا تعلم أن " **محمدا** " [٨] كان يحب الخلاء ، وكان يخلو إلى نفسه فى **غار حراء** لفترات طويلة جدا من حياته .
قلت له : أعلم
قال : ألا تعلم أن " **محمدا** " قد أتى بالدين الإسلامى بعد أن تجاوز سنه الأربعين ..
قلت له : أعلم
فازدادت ابتسامته الباهتة قليلا ، وتأكدت من أنها تحمل كل معانى الرثاء علىّ والسخرية منى
ثم قال : ألا تعتقد أن يبقى إنسان يفكر ــ فى مسألة ما ــ زهاء أربعين عاما .. ولا يصل فيها إلى نتيجة ما ..!!

وازدادت ابتسامته إتساعا حتى بدت لمن حولى .. وأحسست من خلالها بكل معانى السخرية والتهكم علىّ ، لقصور فهمى فى عدم إدراك مثل هذه الحقيقة البسيطة ..!! ولم ينتظر منى

---

[٨] يقصد بهذا الرسول " محمد " صلى الله عليه وسلم .

إجابة ما ، ثم تركنى وانصرف .. بعد أن رمانى بنظرة إستعلاء جعلتنى أتخبط فى جهلى ، وأتحرج منه .. إذ كيف سألقاه ثانية بعد أن علم منى كل هذا المبلغ من الجهل ، وضيق الأفق وعدم الفهم ..!!

وللحق لقد أثر على هذا الموقف العابر تأثيرا بالغا .. فأدركت للحظة مدى قصر نظرى .. فكيف لم أنتبه إلى هذه النتيجة البسيطة ، وأنا المعروف عنى دقتى العلمية . وبهذا اللقاء العابر والابتسامة الساخرة ، أصبحت الديانة الإسلامية ، دينا وضعيا ونتاجا طبيعيا لتأمل محمد (ﷺ) الفكري كل هذه الفترة الطويلة من حياته . وأثمر هذا الوضع عن عزوفي عن الدين بطريقة لا شعورية ، وابتعدت عنه بعد ذلك بشكل واضح .

٢ ــ أمل يتضاءل

انتهت دراستى الجامعية ، و بدأت حياتى العملية ، وبدأت معها رحلة البحث عن الحقيقة ، وكانت طبيعة عملى أن أتواجد فى أماكن ووحدات نائية تبعث فى النفس جوا من الصفاء الروحى [٩] الواضح ، والذى لا يكاد يفصل ــ فيه ــ بين المرء وبين إدراك الحقيقة المطلقة إلا حائل رقيق جدا ، يمكن للفرد أن يخترق حجبه لو أحسن التأمل فيه . وكان عندى من الوقت ما يكفى للقراءة والتأمل فى هذا الجو الصافى وبدأت بكتب المنطق فى الرياضيات ، وكتب الفلسفة ، وقرأت فى تلك الفترة ، كمية كافية عن نوابغ الفكر الغربى وآراؤهم أمثال [١٠] :

ديكارت ــ إسبينوزا ــ لوك ــ باركلى ــ هيوم ــ كانط ــ هيجل ــ نيتشه ــ ماركس ــ سارتر ــ برتراند راسل ... وآخرين .

وفى الواقع ؛ لم تثمر قراءاتى لكل هؤلاء عن شىء يذكر عن الدين أو التدين ، بل أحسست بمدى التخبط الواضح فى فكر هؤلاء عند تناولهم للقضية الإلهية ، والغاية من وجود الإنسان

---

[٩] كان هذا قبل حرب سنة ١٩٦٧ ، أما فى أثناء فترة حرب ٦٧ ، فكان الموت الذى يتراقص حولنا والمواقف العصيبة التى نمر بها تحتم علينا التوجه للبحث عن " الله " بشعور مخلص .

[١٠] أنظر كذلك الباب الرابع ، فقرة (٤. ٣. الفلسفة منذ نشأتها وحتى الفلسفة المعاصرة) لملخص كامل ــ فى جرعة مكثفة ــ لما قدمته الفلسفة للبشرية من فكر .

ومصيره . بل ذهب **برتراند راسل** [11] ، وهو أحد رموز المنطق الرياضى لدى الفكر البشرى ، باعتناق مذهب **اللاأدرية (Agnosticism) . وهو موقف يفتقر كثيرا إلى الذكاء** ، حيث أن الإنسان لا يملك ببساطة الهروب من إتخاذ قرار بالإيمان . فإن خلق الكائنات والتنوع الهائل الذى توجد عليه هو أمر واضح ولا يمكن غض البصر عنه ، كما لا يمكن إسناده إلى صدف متكررة بغير نهاية ، لذا فإغلاق المرء لعينيه أمام كل هذا الكم الهائل من الحقائق لن ينفى وجود هذا العالم .

وقد قادتنى قراءاتى فى هذه الأثناء إلى الكتب الروحية ، حيث وجدت مكتبة لا بأس بها بالعربية [12] . وفى الواقع أثمرت هذه القراءات عن تيقنى من وجود هذا العالم الغيبى (عالم الأرواح) ، وإن كانت إدراكاتنا وحواسنا لا تسعفنا كثيرا للإحاطة بدرجة معقولة أو بدرجة كافية لمعرفة هذا العالم الزاخر بالظواهر .. أو حتى استنتاج بعض القوانين الخاصة به بدرجة معقولة من الدقة ، والتى تتحكم فى مسار هذا العالم أو حتى كيفية الاتصال به بشكل نمطى .

وللحق ــ وليس فى هذا أدنى لبس ــ فقد ازدحم منزلى بالظواهر الروحية فى تلك الفترة بدرجة أثارت دهشتى وقلقى معا ، وتأكدت من حقيقة مؤداها أن الإهتمام بالظواهر الروحية قد تدفع لك بأرواح معاونة أو مرشدة ، أو ربما أرواح إعتراها الفضول لاهتمامك بها ، فجاءت تسعى إليك للتعرف على ماهيتك ، تماما كما تريد أنت التعرف على ماهيتها وماهية عالمها المجهول بالنسبة لنا . وعموما فقد أثرت السلامة وانسحبت من هذه القراءات فى وقت ملائم جدا ، واكتفيت بوضع كتب الأرواح بأحد أرفف مكتبتى بعد أن كانت تحتل مكانا مفضلا بجواري فى حجرة النوم . وبهذا توقفت الظواهر الروحية بالمنزل ، ولم تثمر هذه القراءات عن أى فكر يذكر عن الله أو الدين ، وإن كانت قد أثمرت بشكل واضح وملحوظ عن وجود عالم أو ربما عوالم غيبية تحكمها قوانين مغايره تماما لما نألفه نحن أو نعرفه فى عالمنا الفيزيائى هذا .

واستمرت القراءة بشكل منتظم أملا فى الوصول الى حل قاطع وحاسم بشأن القضية الدينية ولكن بدون جدوى . وبدأ الأمل يتضاءل ويشحب فى الوصول الى نتيجة ما ، أو حتى الاحساس بالاقتراب منها .. حتى قاربت النفس إلى اليأس ..

---

[11] برتراند رسل (١٨٧٢ – ١٩٧٠) من رواد الفلسفة التحليلية ، لمزيد من التفاصيل أنظر تذييل رقم ٨ ، من الفصل الثانى . أنظر كذلك الفصل الرابع فقرة (٤. ٣.) .

[12] أنظر قائمة مراجع الكتاب .

٣ ــ دراسة دين

كان ذلك في إحدى الأمسيات ، بينما كنت أقرأ في احدى الكتب البسيطة ذات الفلسفات المحدودة ، فإذا بالآيات القرآنية التالية تعترض طريقي و تستوقفني لتلقى على كمّا من الدهشة والظلال غير محسوب ، لما فيها من معان علمية ، وجاءت هذه الآيات في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَآ مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢) رَّبَّنَا إِنَّنَآ سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) ﴾

(القرآن المجيد : آل عمران {٣} : ١٩٠ – ١٩٤)

لقد كنت حتى هذه اللحظة أعتبر نفسي ملما بدرجة كافية بالدين الإسلامي .. بحكم الوراثة ، حتى بعد ابتعادي عنه ، وللحق تعجبت أشد العجب ، إذ كيف يحوى القرآن مثل هذه الآيات وبمثل هذا التسلسل الفكرى الواضح عن العلم ، وأنا لا أدرى عنه شيئا .

ومن جهة أخرى فأنا لم أكف عن التفكير في خلق الكون ، فدراساتي العلمية قد تقدمت في تلك الفترة بدرجة ملحوظة في المجالات الكهرومغناطيسيه والرياضيات بصفة خاصة ، والنظرية النسبية ونظرية الكم بصفة عامة . فكيف يحوى القرآن هذا الاتجاه الفكرى ، والفكر العلمي الواضح ويخص بالذكر .. ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ والأرضِ ... ﴾ وأنا لم أنتبه لهذا ..!!

ففي الواقع ؛ أنا لم أكف عن التفكر في الله ، وإن كان هذا مناجاة وذكرا صامتا ، كما لم أكف عن التفكر في خلق السماوات [١٣] والأرض ، وكان هذا هو غاية بحثي ، متمثلا في البحوث

---

[١٣] سيأتي شرح النموذج القرآني لفكر " السماوات " في : " الدين والعلم ... وقصور الفكر البشرى " لنفس مؤلف هذا الكتاب .

فى المجالات الكهرومغناطيسيه والجاذبية العامة ، ودراساتى التى شملت تقريبا كل فروع الفيزياء الكلاسيكيه والمعاصره وتطبيقاتها الهندسية . وقمت لفورى لأحضر المصحف ، فلا يكاد يخلوا بيت مسلم منه ولكنه فى أغلب الأحيان لا يكون مطروقا ، لأتأكد من وجود تلك الآيات وبهذا التسلسل الوارد على هذا النحو الذى قرأته .. ووجدتها فعلا ..!!

ثم كان هذا الخاطر ــ المنطقى ــ الذى هتف فى نفسى : لقد أتعبك البحث فى كتب المنطق وكتب الفلسفة والأروح .. ولم تحصل على نتيجة ما ، وقد إعتمدت فى تقييمك للدين على رجال فكر تنقصهم الرؤية الصحيحة فى أغلب الأحيان ، وها أنت كنت تعتقد حتى هذه اللحظة إنك ملم بالدين الإسلامي بدرجة كافية من المعرفة . ولكنك أمام هذه الآيات أدركت أنك لا تعرف الحد الأدنى منه . ثم أضاف هذا الخاطر .. فلم لا تقرأ القرآن وتدرس الدين الإسلامى ولو من باب الفضول شأنه فى ذلك شأن أى قراءات أخرى مثل كتب الفلسفة والمنطق والتى لم تثمر معك شيئا ، ولم تأت بنتيجة ما يمكنك الإعتماد عليها .

وقد كان .. واندفعت وراء هذا الخاطر .. وكان ذلك بدء الدراسة الجادة والمتأنية للقرآن المجيد ، ولشدة دهشتى ، أننى وجدت أن الصياغة القرآنية قد جذبتنى بدرجة كبيرة حتى أدركت أننى أمام صياغة رياضية محكمة للكلمات العادية (**Compact Mathematical Formulation for the Normal Words**) بفكر وعلم إلهى محيط ليس من السهل إدراك كل جزئياته ، أما إدراك بعض جزئياته ، فتعتمد إلى حد بعيد على ثقافة المرء العلمية ، ومدى نضوجه العلمى .

كما بدأت فى دراسة السيرة الذاتية لمحمد (ﷺ) [١٤] ، وقد جذبنى وضوح هذه السيرة ودقتها ، كما أعجبنى بعض آراء المشركين فى بداية الدعوة ، فى مناقشة الفكر الدينى الجديد لديهم ، وكيف لعب " **مبدأ مقاومة التغيير** [١٥] " ، و " **الوعى الاجتماعى** " دورا أساسيا فى اعتراض

---

[١٤] **ولد محمد (ﷺ) يوم الاثنين ١٢ ربيع أول (عام الفيل) الموافق ٢٩ أغسطس عام ٥٧٠ م . وآتاه الوحى فى غار حراء فى يوم ٢٥ أو ٢٧ أو ٢٩ من شهر رمضان (١٥ - ١٧ - ١٩ - يناير عام ٦١٠ م) وتوالى الوحى عليه طيلة ثلاث وعشرين سنه ، مرشدا وهاديا وموجها له فى كل أعماله . وهاجر مع أصحابه إلى مدينة يثرب (المدينة المنورة الآن) فى عام ٦٢٢م (بداية التأريخ الهجرى) . وفتح مكة ومعه عشرة آلاف مؤمن ، وحطم أصنام الكعبة وطهرها من الأوثان عام ٦٣٠م . ومات محمد (ﷺ) يوم الاثنين ١٢ من ربيع الأول الموافق ٨ يونيو سنة ٦٣٢ م . وعاش محمد (ﷺ) فقيرا ، وقال قبل موته " نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه فهو صدقة " . ولم يترك ما يستحق أن يورث .**

المشركين على الدعوة الجديدة ، وقد اتضح هذا فى مواقف كثيرة لكثيرين منهم . منها حينما أسلم حمزه (عم الرسول) ورأى المشركون أن أصحاب الرسول (ﷺ) يزيدون ويكثرون فى العدد .. فقال **عُتْبَة بن ربيعة** يوما (وكان سيدا حليما فى قومه ، توفده قريش فى الملمات ليكون لسانها المعبر وعقلها المفكر) وهو جالس فى نادى قريش ، ورسول الله (ﷺ) جالس فى المسجد (الحرام) وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد ، فأكلمه وأعرض عليه أمورا : لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ؟ فقالوا بلى يا **أبا الوليد** : قم إليه فكلمه . فقام إليه عتبه حتى جلس إلى محمد (ﷺ) فقال [١٦] :

" يا ابن أخى : إنك منا حيث قد علمت . من البسطة فى العشيرة ، والكمال فى النسب وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم وكفرت من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منى بعضها . "

فقال رسول الله (ﷺ) : **" قل يا أبا الوليد . أسمع " .**

قال : يا ابن أخى . إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الامر مالا . جمعنا لك من أموالنا حتى جعلناك أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تريد به شرفا سودناك علينا ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، **وإن كان هذا الذى يأتيك رُئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب** ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فربما غلب التابع على الرجل ، حتى يداوى منه .

حتى إذا فرغ عتبة ، ورسول الله (ﷺ) يستمع منه ..

قال : لقد فرغت يا أبا الوليد ؟

قال : نعم

---

[١٥] " مبدأ مقاومة التغيير : Principle of resistance to change " هو مبدأ فيزيائى ، ويمثل فى الواقع أحد صور قانون نيوتن الثانى ، وهو الذي ينص على أنه لابد من وجود قوة خارجية مؤثرة حتى نستطيع تغيير حالة الجسم من السكون أو الحركة المنتظمة فى خط مستقيم . ويصاغ هذا المبدأ من وجهة نظر الفلسفة ، كما يقول وليام جيمس بأنه : لا يوجد أكثر إيلاما فى العالم لأى إنسان من أن يقول برأى جديد .

[١٦] " الرسول (ﷺ) لمحات من حياته ... ونفحات من هديه " د. عبد الحليم محمود ؛ سلسلة البحوث الإسلامية . الكتاب الأول ، ص : ١٠١ وما بعدها .

قال : فاسمع منى

قال : أفعل

قال : بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حم (١) تَنـــزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُم فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥) ... ﴾

(القرآن المجيد : فصلت {٤١} : ١ - ٥)

[حم : تقرأ حا .. ميم / فى أكنة : عليها أغطية / وقر : ثقل فى السمع وصمم / حجاب : ستر]

ثم مضى رسول الله (ﷺ) يقرؤها عليه فلما سمعها منه عتبة أنصت إليه ، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليها يسمع منه . ثم انتهى رسول الله (ﷺ) الى السجده (الآية ٣٨ من هذه السورة) .

ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك .

فقام عتبة الى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : **نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به .**

فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟

قال : ورائى .. أنى سمعت قولا ، والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة . يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها بى ، وخلو بين هذا الرجل وبين ما هو فيه . فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه .

قال : هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدا لكم .

وفى الواقع ؛ لقد تعايشت [17] مع أحداث هذه القصة عند قراءتها لأول مرة ، لدرجة أنى ذهبت مع **عُتْبَة بن ربيعة** وجلست معه أمام محمد (ﷺ) وقد أعجبنى منطق عتبة كثيرا ، وخصوصا عندما أخذ بالجانب النفسى لما يكون عليه الرسول من رغبة فى طلب للدنيا من مال أو جاه أو خلافه ، ووصل إعجابى ذروته ، عندما أشار " **عُتْبَة** " إلى الرسول (ﷺ) إلى إمكانية أن يكون به مس ما ، أو مرض ما وإنه سوف يطلب له الطب فى شفائه [18] ، وكنت أرى هدوء النبوة الغريب فى الإنصات إلى عتبة ، فلم يقاطعه حتى إنتهى ، ثم سأله : أفرغت يا أبا الوليد .. فلما علم أنه فرغ .. قرأ عليه بداية " **سُورة فُصِّلتْ** " كما ذكر ..

وللحق .. عندما قرأ رسول الله (ﷺ) سورة فصلت على عتبة ، على النحو السابق ذكره ، انهرت أنا تماما ولم أدر كيف حدث لى ذلك ــ سبحان الله ــ ووقعت منى كلمات السورة كالصاعقة التى زلزلت كيانى من الأعماق .. وما زالت كلمتى ﴿ **حم .. تَنْــزِيل ..** ﴾ تتردد أصداؤها فى نفسى ، ولا يحتملها كيانى الضعيف ، إذ أرى أن " الله " ــ سبحانه وتعالى ــ قد تجلـّى بقدراته على رسوله الكريم بهذه الكلمات . وبذلك أدركت بعين اليقين كلمات المشركين عندما قالوا لبعضهم :

" نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به "

وبكل أسف ، مازال ينتابنى الحزن ، كلما تذكرت هذه القصة ، مشاركة **لأبى حُذَيْفة بن عُتبة** عندما علم بمصرع والده " **عتبة** " ، فى غزوة بدر وهو فى جانب المشركين ، ولم يسلم .

فعقب مصرع والده ، نظر رسول الله (ﷺ) ، فى وجه أبى حذيفة بن عتبة ، فألقاه كئيبا وقد تغير لونه .
فقال له : **لعلك يا أبا حذيفة قد دخلك من شأن أبيك شىء ؟**

---

[17] **الكاتب**

[18] **وبهذا يكون " عتبة بن ربيعة " قد أخذ بكل الإحتمالات الممكنة ، لما يكون عليه حال الرسول (ﷺ) .**

قال **أبو حذيفة** : لا والله يا رسول الله ؛ ما شككت في أبي ولا في مصرعه . ولكني كنت أعرف من أبي رأيا وحلما وفضلا وكنت أرجو أن يهديه ذلك للإسلام . فلما رأيت ما أصابه وذكرت ما كان عليـه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له ، أحزنني أمره .
فقال له رسول الله (ﷺ) : خيرا ودعا له بالخير .

ولعل موقف عتبة هذا يقفه كثيرون الآن من أهل الملل والديانات الأخرى تجاه العقيدة الإسلامية ، فعلى الرغم من إدراك بعضهم من أن العقيدة الإسلامية صحيحة إلا أنهم يصرون على موقفهم تجاه دياناتهم الوثنية . ويرى علماء الاجتماع ، أن الدافع وراء هذا الموقف هو :

ظاهرة " التكيف الإجتماعي " والتي تأخذ طابع مجاراة الأخرين . فالإنسان يرغب أن يفعل ما يتوقع منه الأخرون أن يفعله ، وبذلك يفقد الإنسان شخصيته ، ويصبح أسيرا لوعيه الإجتماعي بشكل مطلق ، ويصبح بهذا " إنسانا بلا شخصية " كما يسميه بذلك جـورج سيميل [١٩] .

وبداهة فإن رجاحة العقل والمنطق مع الإصرار على الخطأ سوف يضاعف من خسران الفرد لنفسه . فإذا كان جهله بالدين لن يعفيه من المسئولية لعدم ادراكه للحقيقة الدينية البسيطة ، والتي تقع وجميع حقائقها في حيز أو دائرة إدراك الفرد العادي ــ كما سنرى ــ فما بالك والأمر أصبح إنكارا بعد علم ، فبديهي إن هذا العناد لن يمثل إلا وبالا على صاحبه ، وخسرانا كاملا لنفسه ، لأن هذا لن يجعله يحقق الغايات من خلقه وعن قصد .

٤ ــ التحوّل ...

استمرت الدراسة المتأنية للديانة الإسلامية فترة زمنية لا بأس بها ، ولكن حدث فجأة ، ما لم يكن مقدرا أو يكن في الحسبان . حيث كان على أن أوقف دراستي الدينية هذه ، على الرغم من تقدمي الملحوظ فيها . وعلى الرغم من أنه لم يداخلني أدنى شك ولا للحظة في منطقية هذا

---

١٩ " جورج سيميل : George Simmel " (١٨٥٨ – ١٩١٨) ، عالم اجتماع ألماني .. من الرواد الأوائل في تأسيس علم الاجتماع الألماني ، أشهر كتبه في الوقت الحاضر : " فلسفة المال : The Philosophy of Money " ؛ و " الغريب : The Stranger " ؛ و " شرك مجموعة المؤسسة : The Web of Group Affiliation " ؛ " المدينة والحياة العقلية : The Metropolis and Mental Life " .

الدين . ولكن ربما كان هذا هو طبيعة الفكر الرياضي لدى ، والذى يسيطر علىّ إلى أبعد الحدود الممكنة ، والذى يجعلنى سريع التأثر بكل ما هو منطقى وعقلانى إلى درجة كبيرة وبشكل ملحوظ ..

وكان هذا عندما أسر زميل لى ــ يخشى على من الفتنة ــ من أن هناك جماعات تبشيرية بدأت نشاطها بالفعل فى التبشير [٢٠] فى جماعات المسلمين ، حيث تدعوهم لاعتناق الديانة المسيحية ، بعد إقناعهم بها . ولم يتنبه زميلى هذا إلى أنه قد لفت نظرى ــ بدون أن يقصد ــ إلى ما يمكن أن تكون عليه الديانة المسيحية من منطق فكرى ، يمكن أن يكون أعلى بشكل أو بآخر من المنطق الفكرى الموجود بالديانة الإسلامية .

وكان من المنطقى أن ينتهى فكرى إلى أن هؤلاء القوم لابد وأنهم يملكون " **الكلمة الأقوى** " أو بمعنى آخر أنهم يملكون " **الحُجّة الأقوى** " . فبديهى لابد وأن هؤلاء القوم قد درسوا الديانة الإسلامية ، وانتهوا من هذه الدراسة إلى أنها ديانة باطلة فى مجملها ، وكان عليهم من منطلق الأخوة الإنسانية ، ومن منطلق الأمانة العلمية أيضا ، أن يقوموا بتبليغنا بهذه النتيجة حتى لا نخسر وجودنا ومصيرنا ــ نحن المسلمين ــ على نحو مطلق بدون أن ندرى . وبديهى أيضا يجب أن يكون سعيهم هذا سعيا مشكورا .

وبديهى أيضا لا تحتاج هذه النتيجة التى انتهيت إليها ، إلى عبقرية خاصة أو حتى إلى ذكاء خاص أو غير عادى ، **فربما كانت هذه النتيجة هى الحد الأدنى المتوقع من الذكاء البشرى ، الذى يتجاوز ذكاء القرد كما نعلم ..!!**

ولهذا كان على أن أوقف إستكمال دراستى للديانة الإسلامية ، على الرغم من المنطق الرياضى المتعالى الذى وجدته فيها ، إلا إننى كنت أرى أنه ليس هناك داع من إضاعة الوقت فيما لا يفيد ولا ينفع ، طالما أن هناك دين أكثر منطقية وأكثر حجة ورجاحة من الدين الإسلامى . وانتهيت إلى قرار البدء فى دراسة الديانة المسيحية .

وللحق ؛ كان هذا القرار صعبا لدى ، ولأول مرة عرفت معنى الخوف من التحول من ديانة إلى ديانة أخرى . وظللت متوجها إلى الله مخلصا فى تلك الفترة ، **متجاوزا المضامين الدينية**

---

[٢٠] مصطلح " التبشير " ، هو مصطلح مرادف لمصطلح " التنصير " . والتنصير هو الدعوة الى اعتناق النصرانية أي المسيحية .

والإنتماء الإجتماعى ، ليهدينى ــ الله ــ إلى سبيل الرشاد ؛ فهو الغاية وهو المــراد أولا وأخيرا . وكان على أن أبحث عن الطريق الجاد والحقيقى الذى يؤدى إليه ، مهما كلفنى هذا من ثمن محدود فى هذه الحياة . ولما كانت الحياة محدودة ، ولا نعرف متى تنتهى ، كما لا يمكن المقامرة بها كاملة حيث لا يوجد لها دور ثان ، كما تمليه علينا الفطرة ، لذا لزم علىّ حزم الأمر ، واتخذت ما أراه مناسبا مهما كــان ، ومهما كلفنى هذا من ثمن ..

وعرجت على صديق لى مسيحى ، كنت أعلم تدينه وصلته الوثيقة بالكنيسة ، وأعلمته برغبتى فى دراسة الديانة المسيحية ، ولكنى لا أعرف من أين أبدأ ؟ ولا كيف أبدأ ؟ فتطوع مشكورا بعد عدة أيام من هذا اللقاء وأحضر لى الكتاب المقدس ، وعدة كتب أخرى لشروح العقيدة وقانون الإيمان المسيحى ، وأعطاها لى متمنيا لى التوفيق . وأحضرت الكتب معى إلى المنزل ، وتوكلت على الله ، وعكفت على دراسة هذا الدين ..

وللحق تعجبت .. وإزداد تعجبى كلما توغلت فى دراسة هذا الدين . وللحق لقد هالنى ما رأيت ، وأصبحت حائرا أمام سلوك الإنسان تجاه الدين عموما ، وتجاه الديانتين اليهودية والمسيحية (أنظر الفصل الثالث) على وجه الخصوص . **وتبددت الدهشة عندما أدركت أن هذه الديانة هى المسؤوله المسؤولية المباشرة عن نشأة المذاهب الفكرية المختلفة ، وضياع الإنسان فى هذا الخضم الهائل من الوثنيات الفكرية ..!!**

٥ ــ العودة والتوسع فى دراسة الأديان

كان على أن أعود مرة أخرى ــ مطمئن النفس ــ إلى ما انتهيت إليه مسبقا ، لاستكمال دراستى للديانة الإسلامية ، والتى لم يعد عندى أدنى شك فى صحتها ، بعد دراستى للديانة المسيحية ، **وليس هذا من منطلق الإيمان المقارن** ؛ أى بمعنى أن كل الأديان سيئة ولكن هناك دائما ما هو أسوأ . ولكن من منطلق ــ كما سنرى ــ إن العقل يقف أمام هذه الديانة عاجزا وخاشعا ومتدنيا بشكل واضح أمام منطق فكرى إلهي متعال ومحيط . ونظرا لعدم نضوجى ــ الكافى ــ فى تلك الفترة ، فقد اعتقدت أن المنطق الفكرى لم يصل بعد إلى درجة الكمال فى أى فكر ، مهما كان ، حتى وإن كان هذا الفكر هو فكر القرآن المجيد نفسه . ولكن مع تقدم العمر وازدياد النضج الفكرى ، وصلت إلى نتيجة حاسمة مؤداها أن المنطق الفكرى فى الدين

الإسلامي هو منطق بلغ الذروة فى الكمال الفكرى ــ كما سنرى ــ إلى درجة لا يتطاول إليها الإنسان المعاصر ، ولا إنسان المستقبل .

وعلى الرغم من أننا نقف الآن على مشارف الاقتراب من " نقطة التجمد الفيزيائى [٢١] : **The freezing point of physics** " ؛ بمعنى الاقتراب بشكل واضح من نهاية العلم الفيزيائى (وليس التطبيقى) ، إلا إننا نجد أنفسنا ما زلنا أقزاما أمام هذا الفكر القرآنى ، الذى يقوم بتوسيع إدراكات الإنسان المحدودة ليس فقط عن وجود آفاق فيزيائية جديدة ، لا يمكن للإنسان سبر غورها تحت أى فكر أو تحت أى مسمى علمى آخر ، بل أيضا عن وجود عوالم متعالية يقف قصور الفكر البشرى وحواس الإنسان حائلا واضحا دون إدراكه لها ، وذلك على الرغم من أننا نستطيع البرهنة على وجودها . ولهذا نرى قوله تعالى فى سورة الإسراء ــ عن القرآن المجيد ــ يجىء على النحو التالى :

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـــذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) ﴾

(القرآن المجيد : الإسراء {١٧} : ٨٨)

[ظهيرا : معينا]

وهو ما يعنى بأن الإنس والجن لو إجتمعوا على **فكر أو عقل كائن واحد** ، فإن هذا الكائن لن يستطيع الإتيان بمثل هذا القرآن .

وفى الواقع ؛ أحسست بأنه ينبغى على أن أقوم بدراسة باقى الأديان الموجودة على الساحة البشرية ، تحسبا لوجود أحدها ذى صياغة صادقة وحقيقية بدون أن أدرى ، وابتدأت هذه الدراسة بالأديان الأكثر شيوعـــا ، والتى يمكن أن تعرّف بأنها ديانات سماوية ، كما وإنها تحمل طابع الوحى الإلهى .

وفى الحقيقة ؛ وقفت طويلا أمام " **الكتاب المقدس** " متأملا نصوصة ، ومتأملا شروحة . فالشروح لا تتفق مع النصوص ؛ والنصوص أبعد ما يمكن عن أن تكون نصوصا مقدسة ، كما لا يمكن التعبد بها تحت أى إسم أو مسمى ، أو تحت أى ادعاء أو مبرر . كما وإن الفكر موجه

---

[٢١] بمعنى إننا قاربنا إلى الوصول إلى نهاية الفيزياء النظرية ؛ أنظر : " الدين والعلم ... وقصور الفكر البشرى " لنفس مؤلف هذا الكتاب .

ـــ فى هذه الديانة ـــ إلى مفاهيم بعينها بدرجة كبيرة ، وليس فهما مباشرا كما جاءت به النصوص ، مع تذكير دائم ومتكرر ـــ من شراح العقيدة ـــ بما ينبغى أن يفهمه المرء من هذه النصوص . ودائما ما يحث رجال الدين أفراد الشعب على إلغاء عقولهم ما أمكن ، وكلما أمكن ، تحت دعوى إن **الدين قضاياه غيبية** لا يمكن القطع بصحتها أو إدراك مغزاها . وبهذا تصبح النصوص ـــ فى النهاية ـــ قضايا مسلم بها بعماء أو بغباء كامل .

وهكذا يمشى الفرد مكبا على وجهه ، يحمل أثقالا ينوء بها ؛ أو يكون البديل هو أن يلقيها كلها مبتعدا عنها وعن الدين كله وهو لا يلوى على شىء . وفى هذا الشأن ينبهنا الله ـــ عز وجل ـــ بقوله تعالى [٢٢] :

﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٢) ﴾

(القرآن المجيد : الملك {٦٧} : ٢٢)

وكان علىّ ـــ بعد هذه الدراسة ـــ استخراج فكر العقيدة مجردا من الكتاب المقدس ، من وسط حشد هائل من الشروح والفكر الموجه والمبررات ؛ وعلى الرغم من صعوبة هذا العمل إلا إنه ليس مستحيلا بوجه عام ، وقد تم تدوين هذا العمل فى الفصل الثالث .

فـ " **الكتاب المقدس** " عبارة عن بقايا متناثرة من بعض الكتب المقدسة فى وسط خضم هائل من نصوص صاخبة من الوثنيات الفكرية عن الإله والأنبياء . فالإله [٢٣] فى الكتاب المقدس تراه يمسك به الإنسان ويتصارع معه ، ولا يستطيع (الإله) الإفلات منه إلا بشروط يمليها عليه الإنسان . ثم يأتى الشيطان ليأخذه إلى جبل عال ، ويحاول إغواءه وإغراءه ويضعه أمامه ويطلب منه أن يخر أمامه ويسجد له .

والإله ينبغى عليه أن يموت ليقتحم مملكة الجحيم ليصل إلى الشيطان ليسترد منه سلطته المسلوبة ؛ ولا سبيل للإله لاسترداد هذه السلطة التى سلبها منه الشيطان ، إلا بخداع الشيطان

---

[٢٢] يجب التنويه هنا إلى أن الإستشهاد بآيات القرآن المجيد ، يخضع للشروط السابق ذكرها فى مقدمة الكتاب .

[٢٣] لا يمكن أن أزج بلفظ الجلالة (الله) هنا فى هذه النصوص . لذا فكلمة " إله " ، المستخدمة فى أى موقع هنا تشير إلى : " الله " فى الشروح المكتوبة .

بإسلوب ساذج لا يستطيع معه ــ الإله ــ حتى الإحتفاظ بالحد الأدنى من الكمالات الإنسانية وليس الكمالات الإلهية . والإله ينبغى عليه أن يموت بأسلوب فى غاية من المهانة بيد الإنسان مخلوقه ، فيترك ــ الإله ــ الشيطان ليقوم بإغواء الناس ــ أو بمعنى أدق اليهود ــ لتمسك به (أى تمسك بالإله) ، ويعرونه من ملابسه ويضربونه على رأسه ويبصقون عليه ، ويعذبه الإنسان ويصلبه حتى الموت .. **تحت دعوى أن الإله يحب الإنسان** [٢٤] ..!!

ثم تصل المأساة الى ذروتها عندما ينتهى الأمر بالإله إلى أن يصبح " خروف مذبوح له سبعة عيون وسبعة قرون " ..!! وليهوى الإنسان الى ذلك الحضيض الفكرى .. ليرعى بجوار هذا الإله المسخ ..!! ليصيح بين الفينه والفينه قائلا " المجد للإله .. والخلاص للخروف ..!! " كما سنرى هذا فى الفصل الثالث رؤية العيان . فهذا هو " **الإنسان** " ، وهذا هو " **الإله** " فى الكتاب المقدس ..!!

﴿ سُبْحانَهُ وَتَعالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاواتُ السَّبْعُ والأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وإن مِّن شَيءٍ إلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) ﴾

(القرآن المجيد : الإسراء {١٧} : ٤٣ - ٤٤)

إنه كان حليما على ذلك الإنسان الأحمق فى تصوراته .. غفورا له إذا ما تاب وأناب عن هذه الدعوى قبل فوات الأوان .. فأى رحمة بعد هذا ..!!

وبديهى أن يكفر الفكر البشرى بمثل هذه التصورات الوثنية عن الإله ، ليترك هذا فراغا واضحا فى النفس البشرية ، يحاول الإنسان سدها أو ملأها بشتى المذاهب الفكرية ، أو بالتنكر

---

[٢٤] هذه النزعة هى أحد صور الماسوشية السادية (Sadomasochism) ؛ وهو مرض نفسى يعرّفه علماء النفس : بأنه انحراف جنسي يتلذذ فيه المرء بإنزال العذاب بالآخرين أو بنفسه . فبديهى لا يعقل أن يقبل الإنسان أن يعذبه الأخرين ــ مهما رأى ذلك منطقيا ــ إلا إذا كان ذى طبيعة شاذة أو كان غير عاقل كما أجمع على ذلك علماء النفس . والسادية (أو الساديزم : Sadism) هو جنون جنسى أساسه تعذيب الآخر بالضرب بالسياط أو غيره ، وينسب هذا المرض النفسى إلى المركيز الفرنسى " دى ساد : De Sadé " . أما الماسوشية (أو الماسوتشزم : Masochism) فهى عكس السادية ، فالمريض نفسه هو الذى يطلب تعذيبه بالأظافر والسياط وتلطيخ وجهه بالأقذار ، والإسم منسوب إلى الشاعر الألمانى (Sieher Masoch) ، وقد تغنى بذلك فى شعره . وكان كاتب الثورة الفرنسية "جان جاك روسو " (١٧١٢ - ١٧٧٨) مصابا بهذا المرض ، ومثله فى ذلك الشاعر والكاتب بودلير .

للعقيدة على نحو مطلق ويتجه إلى الإلحاد ؛ وبديهى كذلك أن ينسحب حكم البشرية ــ على هذا النحو ــ على الدين الصحيح بوعى منها أو بدون وعى ، ويكون الإنسان هو الخاسر الوحيد فى هذا الوجود بدون أن يدرى . أما الأنبياء ــ فى الكتاب المقدس ــ فلا بأس فى أن يكونوا .. زناة .. وقتله .. ومخادعون ..!! ولا بأس أن ينتهى الأمر ببعضهم الى عبادة الأصنام .. هكذا ببساطة شديدة ، وسنأتى إلى تفصيل ذلك ــ بالنصوص المباشرة ــ فى الفصل الثالث . وإذا نبهت أهل العقيدة بأن هذه لا يمكن أن تكون نصوص مقدسة ، وإن هذا لايمكن أن يكون سلوك أنبياء ؛ وإن هذه تحريفات شديدة الوضوح والدلالة ؛ قالوا لك :

إن هذه النصوص هي أكبر دليل على صحة الكتاب المقدس لدينا ؛ إذ لو كان هذا الكتاب محرفا لحذفت منه تلك النصوص ، ولكن نظرا لدقته المتناهية واستحالة تحريفه فإنك تجد فيه هذه النصوص كما هى ، وكما نزل بها الوحي الإلهي من السماء إلى الأرض .

وبديهى أن معنى هذا أن هؤلاء القوم يتقبلون ــ بسلاسة غريبة ــ ما تجىء به النصوص من بشاعة فى المعانى ، وبشاعة فى التصورات عن الإله وعن الأنبياء ، فلا اعتراض لديهم إذن على هذه التصورات ..!! ولهذا لا غرو إذن ؛ فى أن نجد الموسوعات العلمية الغربية تقوم بتصنيف " **الدين والأسطورة : Religion and Mythology** " على أنهما من الموضوعات ذات الطابع المشترك ، ولهذا يوضع الدين فى نفس قسم المعارف مع الأساطير ، تحت نفس العنوان السابق ، كما سبق وأن نوهنا إلى هذا فى التذييل رقم (١) السابق .

ولكن كيف هذا ..؟! كيف يتقبل الإنسان ــ ذلك الكائن العاقل المتعقل ــ كل هذا الفكر الوثنى عن " الله " .. ويتوه علماء النفس بحثا وتجارب .. للعثورعلى تفسير منطقى لهذا الوضع الفكرى الشاذ للإنسان ..!! ولكن بدون جدوى كما سنرى فى الفصل الثانى .

وفى الحقيقة ؛ كما سنرى ــ فى الفصل التالي ــ إن قبول الإنسان لهذا الوضع الشاذ لفكر الإله المسخ ، لهو من أكبر الأدلة على وجود الله ، وعلى فطرية وجود الله فى النفس البشرية . وهذه الفطرة هى السبب الرئيسى التى تقع خلف فكر وفلسفة تعدد الأديان السائد الآن فى المجتمعات البشرية ، وخلف تفشى فكر المذاهب الوضعية فيها . فالإنسان لا يستطيع أن ينفصل عن الله ، فى كل مراحل حياته . ولذلك عندما يخير (لا شعوريا) : بين الاحتفاظ بالإله ــ مهما كانت صورته الأسطورية ــ وبين الانفصال عنه ؛ نجده تلقائيا ــ بوعى منه

أو بدون وعى ــ يختار أن يحتفظ بالإله (مهما كانت صورته هذه) ، على أن يبقى فى هذه الحياة بدون إله أو أن ينفصل عنه بشكل ما أو بآخر (أنظر الفصل الثانى) .

وبديهى لا يمكن أن تدرّس العقيدة المسيحية ، أو أن تلقن لأتباعها ، أو عند القيام بالتبشير بها على هذا النحو المذكور ، وإلا فلن يقبلها أحد ؛ بل عادة ما يتم إلتقاط بقايا نصوص الكتب المقدسة الموجودة بها ــ بعناية شديدة ــ حيث يتم التبشير بها فقط ، وتجنب ما عدا ذلك . كما لا يمكن التعرض للفكر الكلى للديانة عند التبشير بها ، بل هى جزئيات فقط يتم الكلام عنها بإقتدار غريب ، مع تجنب الكلام عن الأفكار الكلية عن الإله ، والنصوص والأنبياء ..!!

٦ ــ الفكر التبشيرى عن قرب

فى أثناء إقامتى بالولايات المتحدة الأمريكية كان هناك مجموعتين[٢٥] من المبشرين يقومان بالتبشير فى ، وفى أسرتى ، فى محاولة منهم لتنصيرنا . والمجموعة الأولى هى جماعة " شهود يهوه : Jehovah's Wittnesses " [٢٦] ، أما الجماعة الثانية فهى تمثل : " الكنيسة

---

[٢٥] فى العادة تتكون كل مجموعة من سيدتين أنيقتين ، تجاوزتا الخمسين أو الخمسة وخمسين سنة بقليل ، وكل مجموعة تحمل الكتاب المقدس الخاص بها . وعادة ما كان يتم التبشير تحت إشراف إدارة أعلى مكونة من أربعة أفراد – رجلين وسيدتين – وهم أكثر خبرة فى نصوص الكتاب المقدس من السيدتين الأولتين . وكنا نحظى بزيارة هذه الإدارة كلما كانت هناك أسئلة لا تستطيع المجموعة الأولى الإجابة عنها .

[٢٦] هى جماعة منبثقة عن الفكر المسيحى ، ويحمل الكتاب المقدس لها عنوان : " الترجمة العالمية الجديدة للنصوص المقدسة : New world Translation of the Holy scriptures " . وهم يعتبرون أن ترجمتهم للنصوص المقدسة هى الترجمة الأكثر دقة من الأصل اللاتينى لها ، وبالتالى فإن كتابهم المقدس هو أدق فى المعانى من الكتاب المقدس المتداول بين الطوائف الأخرى فى العالم المسيحى . وبهذه الترجمة اختلف فكرهم إختلافا جذريا عن باقي الطوائف المسيحية الأخرى . وسنتعرض لبعض تفاصيل هذا الفكر فى الصفحات التالية . وقد أسس هذه الجماعة " جماعة شهود يهوه " " شارلز تاز راسل : Charles Taze Russel " ومساعديه فى السبعينات من القرن التاسع عشر (١٨٧٠) ، فى ولاية بنسلفانيا بالولايات المتحدة الأمريكية . وتصدر لهذه الجماعة : " مجلة ووتش تاور : Watchtour " بأكثر من (١٠٠) لغة . وأول عدد صدر من هذه المجلة كان فى عام ١٨٧٩ . وقد استمدت هذه الجماعة اسمها من نص : " إشعياء : Isaiah (٤٣ : ١٢) " :

[Ye are my witnesses, saith Jehovah, and I am God] (American Standard Version)

أما النص باللغة العربية المناظر لهذا النص الإنجليزى فهو (كما يأتى فى الكتاب المقدس) :

المسيحية الإنجيلية البروتستانتينية : The Evangelical Protestant Church " . وفى الحقيقة كنت قد قبلت بمبدأ التبشير (أو التنصير) كنوع من استكمال دراستى للأديان ، فضلا عن الوقوف على بعض الأمور الهامة التالية :

- **أولا :** التعرف على الفكر التنصيرى عن قرب .
- **ثانيا :** التعرف على مدى إلمام المنصر بالديانة الإسلامية . فقد كنت حتى هذه اللحظة لا أتصور أن يقوم منصر مسيحى ــ بالتبشير بالديانة المسيحية ــ فى الديانة الإسلامية وهو لا يعلم شيئا عن الإسلام . فمن غير المنطقى أن يأتى إليك تاجر ويطلب منك إستبدال سلعة جيدة تملكها ، بسلعة أخرى رديئة هو يملكها ، إلا إذا كان لا يعلم ماذا تملك . أما إذا كان يعلم ماذا تملك ؛ فلابد وأن يكون هذا التاجر إما أبلهًا أو فاقدا للعقل .
- **ثالثا :** التعرف على مدى قبول المنصرين لمبدأ الحوار الدينى بين الأديان .
- **رابعا :** التعرف على مدى إلمام المنصر بديانته هو (أى الديانة المسيحية) ، وكيفية تبريره للأخطاء والمتناقضات التى يحتويها الكتاب المقدس (أنظر الباب الثالث) .

وفى الواقع ؛ لقد أفادنى هذا الفكر التنصيرى بدرجة كبيرة ، لأنه قد ألقى كثيرا من الضوء على نماذج من الفكر البشرى تجاه الدين ليس من السهل تفسيره .

وربما كانت أهم الملحوظات على هذه الفئات التنصيرية (أو التبشيرية) كالتالى :

- **أولا :** لقد كانت كل مجموعة ــ من المجموعات التبشيرية ــ تحمل الكتاب المقدس الخاص بها ، وعلى الرغم من أن الفوارق فى الصياغة كانت طفيفة جدا ، إلا أن الفوارق فى المعانى التفسيرية التى كانوا يتبعونها كانت أضخم من أن تحسب . لأن النصوص تسمح بمثل هذا التباين الصارخ فى الفهم . **ونذكر منها هنا خلافين فقط على سبيل البيان :**

أما الخلاف الأول ؛ فهو الخلاف الخاص بمنظور السيد المسيح فى الديانة المسيحية ؛ فعلى الرغم من وجود فكرة الفداء والصلب عند كل من جماعة " **شهود يهوه** " والفئات الأخرى

[[١٢] .. وَأَنْتُمْ شُهُودِي، يَقُولُ الرَّبُّ ، وَأَنَا اللهُ .] (**الكتاب المقدس : إشعياء ٤٣ : ١٢**)

وكما نرى ، فإن كلمة " يهوه : Jehovah " ــ التى استمدت منها الجماعة إسمها ــ لا تظهر في النص العربي حيث استبدلت بكلمة " الرب " .

obeikandi.com

للطوائف المسيحية [٢٧] ؛ إلا أننا نجد أن السيد المسيح ــ فى فكر جماعة " **شهود يهوه** " ــ هو كبير أو رئيس الملائكة : أى " **الملاك ميخائيل** " [٢٨] . حيث يمثل السيد المسيح " **المولود الأول : The first born** " لله ، بمعنى أن الله قد خلقه ، شأنه فى ذلك شأن أى مخلوق آخر ، ولكن ــ الله ــ قد بدأ به الخلق **ليساهم** معه (أو ليعاونه) بعد ذلك فى استكمال باقى عمليات الخلق الأخرى . كما أعده ــ الله ــ كذلك للقيام بتنفيذ بعض المهام الخاصة ، كنزوله ــ أى نزول المسيح ــ على الأرض والموت على الصليب بالنيابة عن الإله .. أي القيام بعملية الفداء والصلب [٢٩] . وكذا ؛ قيادة قوات الحرب ــ فيما بعد ــ ضد الشيطان . **بينما** نجد أن **السيد المسيح** فى فكر الفئات المسيحية الأخرى هو " **الله نفسه** " بعد أن تجسد ونزل على سطح الأرض فى الصورة البشرية لقيامه بنفس عملية الفداء والصلب .

وبديهى أن الفارق بين المنظورين ؛ هو الفارق بين المخلوق والخالق . هذا الى جانب فكر الشرك الواضح ــ بالله ــ عند جماعة " شهود يهوه " ، نظرا لقيام " المسيح " **بالمساهمة** معه (أو بالمعاونة) فى إستكمال باقى عمليات الخلق مع " الله " . وبديهى إنها فوارق أضخم من أن تحسب .

أما **الخلاف الثانى ؛ فهو الخلاف الخاص برؤية الصليب** ؛ فبينما نجد " **الصليب : The Cross** " يمثل **الرمز المركزى للإيمان المسيحى عند كل فئاتها** (ويسمى التعليم المسيحى عن الصليب بعقيدة الكفارة [٣٠]) ، إلا إننا نجد أن هذا الرمز لا تقول به جماعة شهود يهوه ،

---

[٢٧] تؤمن المسيحية بعقيدة " الثالوث القدوس " والتى تعنى بأن " الله " له ثلاث صور أو ثلاثة أقانيم هى : " الأب والإبن والروح القدس " . وكلمة " أقنوم " فى اللغة اللاتينية تعنى شخصيات الدراما المسرحية أو التمثيلية ؛ ومن ثم فإن أدق فهم لكلمة أقنوم يمكن أن يكون " دور " ؛ أى دور الله فى الدراما العظمى لإعلان الله وخلاص الإنسان . وبهذا المعنى يكون دور " الله " فى السماء هو " الآب " . وعندما نزل " الله " على الأرض وتجسد فى صورة يسوع المسيح (أو عيسى بن مريم عليه السلام) ، أصبح دوره هو " الإبن " . أما دوره كـ " روح القدس " فله تعريفات عديدة ؛ منها " الله " عندما يعمل مع رسله لهداية الناس ، ومنها " النار الإلهية " ؛ وسوف نعرض لمزيد من هذه التفاصيل فى الفصل الثالث . [عن : " بماذا يؤمن المسيحيون " جورجيا هاركنس ، ترجمة إسحق مسعد (الكنيسة الأسقفية) . ص : ٦٨/٥١]

[٢٨] أنظر على سبيل المثال :
" Aid to Bible Understanding " , watchtower Bible and Tract Society of New York , Inc. page : ١١٥٢ .

[٢٩] سنأتى إلى معنى الفداء والصلب فى الفصل الثالث .

[٣٠] " بماذا يؤمن المسيحيين " جورجيا هاركنس ، ترجمة إسحق مسعد (الكنيسة الأسقفيه) . ص ٦٢ .

وليس هذا فحسب ، بل لا يأتى ذكر كلمة " **صليب** " على نحو مطلق ، فى الكتاب المقدس الذى يحمله جماعة " شهود يهوه " . فقد أستبدلت كلمة صليب فى الكتب المقدسة الخاصة بـــالفئات المسيحية الأخرى ، بكلمة " **وتد أو خازوق التعذيب : Torture Stake** " فى الكتاب المقدس الذى يحمله جماعة " **شهود يهوه** " .

وبديهى سوف يترتب على هذا خلافات كثيرة أخرى فى تفسير النصوص ــ كناتج طبيعى من وجود خلاف فى المنظورين الأساسيين السابقين ــ ولكننا لن نتعرض لها هنا حتى نتجنب الدخول فى قضايا ــ ثانوية ــ تصرفنا عن الغاية الكلية لرؤية الدين كما يعرضه الكتاب المقدس لتلك الفئات الأساسية .

• **ثانيا :** كانت كل فئة منهم ترفض رفضا قاطعا أن تنظر فى الكتاب المقدس الخاص بالفئة الأخرى ، **بل كثيرا ما كنت أرى الفزع يصيبهم** ــ بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ــ عندما أقوم بفتح الكتاب المقدس الخاص بالفئة الأخرى أمام الفئة الأولى ، وذلك فى محاولة ــ عفوية ــ منى فى بعض الأحيان ، لمقارنة نفس النصوص عند الطائفتين لبيان مدى التناقض بين معنيين ما فى الكتاب المقدس ، وذلك على الرغم من أن الترجمتين تنتسبان إلى نفس الأصول اللاتينية لها (العبرانية والكلدانية واليونانية) ، كما يقولون . إلا أننى كنت أراهم ــ عندما أفعل هذا ــ يشيحون بوجوههم بطريقة بالغة العصبية حتى لا تقع أعينهم على نصوص الكتاب المقدس الآخر . فقد كانت كل فئة تخــاف على نفسها من الفتنة بدرجة كبيرة جدا وتدعو للدهشة . **وبديهى إن هذا يعكس كياتا فكريا هشا ، أو بمعنى أدق فكرا إيمانيا هشا سوف يتناثر حطاما عند الاصطدام مع أول تفسير مغاير لما تم تلقينه لهم .**

وبديهى أيضا ، أن هذا يعكس مفهوم الفكر الموجه فى العقيدة المسيحية نفسها ، فالشروح لا تعكس المعنى الحقيقى للنصوص ، وإلا لما كان هناك ضرورة لمثل هذا الخوف طالما أن المعانى واحدة لدى جميع الفئات ، ولكن وجود مثل هذه الخلافات الجوهرية بين فئات العقيدة الواحدة ، هى التى تدفعهم إلى مثل هذا الخوف الواضح .

وبديهى وهذا هو حالهم مع ــ مجرد ــ ترجمات مختلفة لنفس النصوص المقدسة لديهم ، وذلك من الأصل اللاتينى لها ، فما بال حالهم إذا أشرت إلى " **القرآن المجيد** " **فى أثناء حوارى معهم ؛ فقد كان معنى هذا أن الشيطان بعينه سوف يتلبسهم ، بما لا يدع مجالا لأى شك .**

وعلى هذا فمبدأ الحوار الدينى كان مرفوض لديهم تماما ، وعندما كنت أنبههم الى أنهم بمثابة التاجر الذى يعرض بضاعته على مستهلك ، بدون أن يدرى ما إذا كان هذا المستهلك لديه بضاعة أفضل أوأحسن منها أو لا ؛ فكانوا يرددون دائما نفس الإجابة ، وبنفس الكلمات ، فقد كانوا يقولون :

" نحن لا يعنينا ما نؤمن به ، ولكننا نبشر بما نؤمن به فقط ، ولا نــريد أن نعرف أكثر من هذا " .

فقد كان هذا كل مبلغهم من العلم ، ومن ضيق الأفق الذى يدعوا إلى الشفقة عليهم . ففى الواقع ؛ فإن مثل هذا الإنغلاق الفكرى يكشف عن عملية " **غسيل مخ كبرى** " بكل ما تحوى هذه الكلمة من معنى عريض ، فقد محى تماما كل ما لديهم من منطق فكرى ، وترك فقط ما تنبه عليهم أن يفعلوه أو أن يقولوا به . إنهم كانوا قوما مبرمجين إلى درجة بعيدة للغاية ، فقد كانوا بمثابة شرائط تسجيل بشرية (رباعية الأبعاد) ، يعاد تشغيلها من حين لآخر عند الحاجة . **كما لم يتجاوز الفكر التبشيرى لديهم عن فكر كسب الأتباع أو فكر المهنة التى تم تكليفهم بها بطريقة آلية للغاية** . أما مبلغ علمهم عن ديانتهم فلم تخرج عن العلم ببعض المقتطفات المتناثرة ، فى صفحات بعينها ، أو ببعض النصوص التى تخدم الغرض من فكر الدعوة ، وهو فكرة الفداء والصلب والخلاص بالنسبة للفئات المسيحية المعتادة .. إلى جانب فكر معركة الخير والشر القادمة أو " **معركة الأرماجدون** : **The Armageddon or Har-Magedon** " **الذي تركز عليه** جماعة " **شهود يهوه** " بصفة خاصة . وهى المعركة التى سوف يشهدها الجيل الحالى ، والتى سوف ينتصر فيها " **جيوش** الله " من جانب ، على الأشرار أو " **جيوش الشيطان** " من جانب آخر . وسوف يكون يوم الإنتصار هذا بمثابة **يوم القيامة الأول** [٣١] للبشرية وسوف تكون فئة " **شهود يهوه** " هى الفئة الوحيدة الناجية بعد هذه المعركة .

---

٣١ يعتبر " يوم القيامة الأول " بداية عهد السلام على الأرض ، حيث يقوم السيد المسيح ــ عقب هذا اليوم ــ بحكم الأرض لمدة ألف سنة . ولن يوجد على الأرض فى هذه الأثناء إلا الأبرار وبعض القديسين . ويعرف هذا الفكر باسم " العقيدة الألفية السعيدة : the Millenarianism " أو " المجيء الثانى للمسيح " . ثم يعقب الألف سنة هذه ، المعركة الأخيرة بين الإله والشيطان ، وهى المعركة التى ينتصر فيها " الله " بشكل نهائى على الشيطان ، ثم يأتى عقب هذه المعركة الأخيرة " يوم القيامة الثانى " الذى يحاسب فيه البشر على أعمالهم بشكل نهائى .. ثم ينتهوا إلى العدمية .. أو العيش لخدمة الخروف (الإله) [يوجد مزيد من التفاصيل عن هذه المعانى ، فى الفصل الثالث ــ من هذا الكتاب ــ بند ٤. ٢. ٣.]

أما بالنسبة " للرؤية الكلية : **The global view** " للدين ، فهى تتسم بضبابية وتعتيم شديد ، وعدم إتساق فى المعانى الواردة ، حيث الأسطورة والفكر الوثنى يلعبان فيها الدور الأساسى والحاسم أيضا (أنظر الفصل الثالث) .

• **ثالثا** : أما مدى إلمام المبشرين بالديانة الإسلامية فهو يكاد يكون معدوما تماما ، بل هو معدوم فعلا . وحتى إن وجد فهو غير صحيح . ومما يؤكد هذا الفكر أيضا أنه كان يأتى إلينا فى بعض الأحيان ، بعض فئات مسيحية تبشيرية أخرى ــ مثل **طائفة** المورمون [٣٢] ــ لتقوم بالتبشير فينا ، ولما كانوا يعلمون بأننا مسلمين كانوا يهزون رؤسهم بأسى شديد ويقولون : " السحر الأسود [٣٣] : **The Black Magic** " ثم ينصرفون وهم لا يلوون على شىء .

وأود أن أنبه أن الدين الإسلامى ليس " سحرا أسودا " أو خلافه ولكن حجم المنطق الفكرى والمنطق الرياضى والمنطق الفيزيائى[٣٤] الداخل فى هذا الدين ــ كما سنرى ــ أضخم من أن يحسب ، لذا فحجم المعرفة بالله ، وكذا حجم المعرفة بالدين والتدين داخل هذه الديانة تصل الى درجة اليقين (ربما الكامل عند البعض) الذى لا تشوبه أدنى شائبة من الشك . وبالتالى

---

[٣٢] **طائفة " المورمون : Mormon " هى طائفة دينية أمريكية أنشأها جوزيف سميث (١٨٠٥ ــ ١٨٤٤) عام ١٨٣٠ ، وقد أباحت تعدد الزوجات فترة ثم عادت فحظرته . وتعرف كنيسة هذه الطائفة باسم : " كنيسة عيسى المسيح للقديسين العصريين : Church of Jesus Christ of Latter-day saints " .**

[٣٣] **هو أسوأ أنواع السحر ، ولا يستخدم إلا فى الضرر فقط . له طقوس دموية تعتبر نوع من أنواع التقرب إلى أو عبادة الشيطان .**

[٣٤] **المنطق الرياضى : هو منطق يهتم بالعلاقات المنطقية بين مفردات أو متغيرات النظرية الواحدة ، ويمكن أن تكون هذه المتغيرات كميات تجريدية بحتة ، ليس لها علاقة بالواقع الفيزيائى المحيط بنا . وفى هذه الحالة فإن نتائج هذا المنطق ليس بالضرورة كميات يمكن قياسها ، وخصوصا إذا كانت المقدمات أو الفروض لا تعكس واقع فيزيائى . ولهذا فإن المنطق الرياضى كثيرا ما يعالج من أبواب الفلسفة . أما نتائج المنطق الرياضى فهى بالضرورة صحيحه ، لأنه يمكن ردها فى النهاية إلى الصورة : [أ هو أ] أو [أ = أ] ؛ وبالتالى فالنتيجة تحوى دليل أو آية صدقها .**

أما المنطق الفيزيائى : فهو إلى جانب أنه منطق رياضى ، إلا أن متغيراته عادة ما تمثل كميات فيزيائية قابله للقياس . وبالتالى فإن نتائج هذا المنطق يمكن التثبت من صحتها بالقياس المباشر ، وتمثل نتائج هذا المنطق التنبؤات العلمية المختلفة التى يستفاد منها فى التقدم التكنولوجى الذى نعاصره في الوقت الحاضر . ويطلق أحيانا على المنطق الفيزيائى عنوان " المنطق الرياضى التطبيقى " لأنه يمثل تطبيق المنطق الرياضى فى مجال الفيزياء العامة .

فإنقياد أتباعه لتعاليمه يكون انقيادا كاملا ولكن للأسف الشديد فكثير ما تستغل بعض الفئات الضالة مثل هذا الإنقياد الجماهيرى لتوجيه هذه الجماهير إلى خدمة أغراضها أو لتحقيق أهداف ذاتية . وغالبا ما تكون بعيدة كل البعد عن النصوص والأهداف السامية لهذا الدين .

إن أشد ما يسىء الى الدين الإسلامى هو جهل الأتباع (The ignorance of the followers) ، ولهذا ينسب إليه الغربيون خطأ مثل هذه الأسماء كـ " السحر,الأسود " أو " الإسلام المقاتل The Militant Islam " وخلافه . والقائل بمثل هذه الأقوال غالبا ما يعكس عدم درايته التامة ـ هذا إن لم يكن مغرضا ـ بهذا الدين . ومثل هذا القائل ، غالبا ما يكتفى بملاحظة سلوك الأتباع ، أو السلوك الظاهرى لبعض الجماهير المضللة أو جماهير ذات طابع فكرى منحرف ، كما فى بعض الطوائف الإسلامية (نرى هذا فى بعض احتفالات بعض الطوائف الشيعية [٣٥]) ، ليكون هذا السلوك دليلا عنده على المضامين التى يحويها هذا الدين . وبالتالى الحكم خطأ عليه بدون أن يكلف نفسه مشقة دراسة هذا الدين أو حتى المعرفة الجزئية به .

فالحقيقة التى لا تقبل الجدل ـ كما سبق وأن ذكرت وكما سنرى حالا ـ أن الدين الإسلامى هو نظرية علمية متعالية آية فى الإحكام تمثل الصياغة الحقيقية المنطقية ـ الرياضية والفيزيائية والعلمية معا ـ للإنسان .. كوجود ومصير .. وغايات من الخلق . وتحوى هذه النظرية جميع

---

[٣٥] أحد الأمثلة البارزة التى تسىء للإسلام إساءة بالغة فى هذا الشأن ، هو ما تفعله بعض فئات الشيعة (وهي أحد الطوائف المحسوبة بسلوكها ـ الدموى ـ على الإسلام ، والإسلام برىء من هذا السلوك تماما) . فقد ضلت هذه الفئة ضلالا بعيدا فى حزنها المبالغ فيه على مقتل الإمامين على والحسين (وهما من حوارى الرسول ـ من المنظور المسيحى ـ هذا إلى جانب صلة القربى معه) ، بينما لا يوجد أى علاقة على وجه الإطلاق ، بين مقتل هذين الإمامين (على والحسين) وبين تعاليم الدين الإسلامى . ونرى هذا الحزن قد ملأ التركيبة المزاجية لشخصية هذه الطائفة الشيعية بشكل واضح ، حيث يبلغ هذا الحزن ذروته فى العاشر من محرم سنويا ، حيث يقوم الشيعة بضرب قامتهم وأكتافهم . ويشجون رؤوسهم بالسلاسل والسيوف والمدى ... لتأكيد أساهم البالغ على الإمامين على والحسين .

وللحق ؛ كنت أرى بعض احتفالات هذه الفئة الضالة بسلوكها هذا [والمحسوبة ـ بهذا السلوك الدموى ـ على الإسلام ظلما وجورا] فى التلفزيون الأمريكى ، وكان قلبى ينخلع لهول ما كنت أرى ، ومدى الإساءة البالغة التى تسببها هذه الفئة بسلوكها الدموى هذا والبدائى معا ، إلى الدين الإسلامى ، والإسلام برىء من هذا السلوك تماما . وربما كانت تأخذ هذه الفئة بما دأب المسيحيون على فعلة فى أسبوع الآلام (السابق على الفصح) ، وهكذا تأصلت هذه الضلالة لدى الشيعة كما فى بعض الفئات المسيحية . والمعروف أن الغرب المسيحي ـ بصفة عامة ـ يقوم بتمويل هذه الاحتفالات بهدف الإساءة للإسلام .

الخطوات اللازمة للبرهنة على صحتها وصدقها . والديانة الإسلامية لا تقع فى الحيز الغيبى الذى يصعب معه التأكد من صحتها . ولكن كلا من عالمى الغيب والشهادة (أى العالم غير المدرك والعالم المدرك بالحواس) ، وهما يمثلان الفعل الإلهى ، يقعان بين دفتى هذه الديانة ، حيث يمثل الغيب فيها الامتداد الطبيعى والمنطقى للعالم الفيزيائى المحسوس ، هذا إلى جانب أن الغيب نفسه يكاد يكون محسوسا فيها ، ولا تحوى الديانة أى دور ــ مهما صغر ــ للأسطورة أو الخرافة فى هذا الغيب . والإنسان بوجوده وحاضره ومستقبله وعلمه وكونه ومصيره .. إلخ ، هو جزئية صغيرة جدا من فكر إلهى محيط يمكن ادراكه بقليل من الجهد فى هذا الدين .

ولا أعتقد أن هناك أيا من النظريات العلمية الكبرى[٣٦] لا يحوى القرآن المجيد مضمونها بشكل كيفى كامل ، بل الأكثر من هذا ــ ورغم ما فى ذلك من مجازفة علمية ولكنها محسوبة أيضا ــ إن القرآن لا يقدم لنا النموذج النهائى لكوننا الفيزيائى فحسب ، بل يقدم لنا كذلك الصيغة النهائية للنظرية الفيزيائية الموحدة [٣٧] التى تحوى كل مظاهر الوجود فى صياغة رياضية فيزيائية واحدة ، كما يقدم لنا الفكر القرآنى النموذج الكونى اللازم الذى يحوى الحلول اللازمة لمشكلة المادة (The Problem of Matter) والتى لم تحلها بعد ميكانيكا الكم ولا النظرية النسبية حتى وقتنا المعاصر .

فعلى سبيل المثال ؛ عندما يتعرض القرآن لفكر **الأكوان المتطابقة أو الموازية** [٣٨] ، فإنه يؤكد لنا أن القوانين الفيزيائية التى تحكم هذه الأكوان هى قوانين فيزيائية مغايرة تماما للقوانين الفيزيائية التى تحكم كوننا هذا . وهذا الفكر لم يتطاول إليه الفكر البشرى حتى يومنا هذا ، ولو من باب قصص الخيال العلمى . وحتى الآن لم يأخذ العلم فكر الأكوان الموازية المأخذ الجدى ، وإن أعتبر أحيانا فى بعض قصص الخيال العلمى ، ولكن بمفهوم قاصر جدا ، هو نفس المفهوم

---

[٣٦] " الدين والعلم ... وقصور الفكر البشرى " لنفس مؤلف هذا الكتاب . أنظر كذلك الفصل الثانى ، من هذا الكتاب (بند ١١. ٦) ؛ لبعض التفاصيل عن : " نظرية الإنفجار الأعظم : The Big Bang Theory " .

[٣٧] المرجع السابق . وتسمى هذه النظرية أيضا باسم " نظرية لكل شىء " وتسمى أيضا الـ : " TOE " بمعنى أخمص القدم ، أو أصل الفيزياء العامة ، وهى تعتبر ما بعد " نظرية الخيوط أو الأوتار المتناهية : The Super String Theory " ، أو هى " نظرية الخيوط أو الأوتار المتناهية " فى شكلها النهائى .

[٣٨] المرجع السابق .

الفيزيائى لكوننا الذى نحيا فيه . ولكن القرآن المجيد يقرر حقيقة تواجد مثل هذه الأكوان الموازية ، أو بمعنى أدق الأكوان المتطابقة أو المتراكبة ، ولكن بقوانين فيزيائية مغايرة لما نألفه عن كوننا هذا . **وحتى " نظرية النشوء : The Evolution Theory " التى جاء بها داروين [٣٩] سوف تصبح خير شاهد على قصور الفكر البشرى عن إدراك الحقائق الكلية ، إذا ما قورنت " بفكر التطور " العريض الذى أخبرنا به الحق تبارك وتعالى ، فى قرآنه المجيد ، عن الإنسان ووجوده ومصيره .**

٧ ــ الدوافع ...

لقد بات مؤكدا لدَىَّ أن الإنسان **ليس لديه حتى الآن " نظرة كلية : Global View "** شاملة للأديان الموجودة على الساحة البشرية . وحتى على مستوى الموسوعات العلمية ، التى غالبا ما تقوم بعرض الديانات من المنظور الدينى كما يفهمه أهل العقيدة ، وغالبا ما يكون هذا المنظور هو المنظور المراد إبرازه فقط من جانب أهل العقيدة ، حيث لا تقوم الموسوعات بعرض الديانات كدراسة نقدية : لها ما لها .. وعليها ما عليها .

كما يوجد جانب آخر لا يقل أهمية عن هذا ، وهو جانب عدم وضوح الفرق بين معنى " القضية الدينية " ، وبين معنى " القضية الإلهية " فى فكر كثير من الكتاب والنقاد والفلاسفة . فكثيرا ما كنت أجد مؤلفين أو كتابا تصيبهم المعاناة إرهاقا فى التدليل والبرهان على " وجود الله " ، وبعد أن ينتهوا من هذا البرهان ، أجدهم ينتهوا ، أو بمعنى أدق **يقفزوا إلى النتيجة التى تقول بأن " ديانتهم صحيحة " .** ومعنى هذا أن هؤلاء المؤلفين لم يدركوا : **أنه لا توجد ثمة علاقة ما ، بين البرهان على " وجود الله " ، وبين البرهان على " صحة الدين " ، فكلاهما قضايا مستقلة** عن الأخرى ، كما سنرى حالا ، ولكل منها براهينها الخاصة بها والمميزة لها .

وكما سبق وأن ذكرت ، أن الكتاب المقدس عبارة عن بقايا نصوص متناثرة من بعض الكتب المقدسة فى وسط خضم هائل من نصوص صاخبة من الوثنيات الفكرية عن الإله

---

[٣٩] تشارلز روبرت داروين : Charles Robert Darwin (١٨٠٩ - ١٨٨٢) : عالم طبيعة بريطانى . صاحب النظرية الدارونية . أشهر آثاره " أصل الأنواع : The Origin of Species " عام ١٨٥٩ ، والتى تقول بأن الإنسان قد نشأ من أصل حيوانى (أحد فصائل القردة) ، وتطور حتى أخذ شكله الحالى . أنظر الملحق الثالث من هذا الكتاب : " كلمة موجزة عن : قصة خلق الإنسان والنظرية الدارونية كما جاء بها القرآن المجيد " .

والأنبياء . لذا كان يلزم إستخراج فكر العقيدة مجردا من هذا الكتاب ، من وسط حشد كبير من الشروح والفكر الموجه والمبررات . وعلى الرغم من صعوبة هذا العمل إلا إنه ليس مستحيلا على أى حال ، وذلك حتى يمكن أن يكون لدى الفرد العادى عمل كلى متكامل وبسيط يستطيع تتبعة بدون أى عناء وبدون حتى إمعان كبير للفكر . وقد تم تدوين هذا العمل فى الباب الثالث . وبديهى أن هذا يعنى ، أنه قد تم عرض الفكر الكلى للديانتين (اليهودية والمسيحية) مجردا من أى تعليق ، أو أى إضافات تبعدنا عن فهم القضية الدينية على نحو مجمل لكل منهما .

وبديهى أنا لم أعن فى هذا الكتاب بالقطع المتناثرة من بقايا الكتب المقدسة الموجودة بالكتاب المقدس الحالى ، فقد عنى بهذا القرآن المجيد . فقد أعاد القرآن المجيد صياغة هذه النصوص المقدسة السابقة له ، الصياغة الصحيحة لها فى إحكام شديد ، تصديقا لقوله تعالى الى محمد ، صلى الله عليه وسلم ، ..

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ ... (٤٨) ﴾

(القرآن المجيد : المائدة {٥} : ٤٨)

[والهيمنة : هى الحفظ والإرتقاب]

كما لم أعن بالمتناقضات الموجودة بالكتاب المقدس ، لأن أئمة العقيدة يرون أن وجود مثل هذه المتناقضات بالكتاب المقدس هى من أقوى البينات والأدلة على صحة هذا الكتاب ، حيث يقول **القديس يوحنا ذهبى الفم** عن التناقضات الموجودة بالأناجيل [٤٠] :

" أن ما يرى فى البشائر (أى فى الأناجيل) من <u>الفروق</u> هو من أعظم البينات على صحتها لأنه لو كان هناك إتفاق تام فى كل الأمور لكان <u>أعداء الحق</u> يقولون أن الكتبة (أى كتبة الأناجيل) قد تشاوروا أولا واتفقوا على ما يكتبونه "

وبهذا المفهوم يصبح وجود المتناقضات فى الكتاب المقدس بيّـنة ، ودليل صدق على صحتة ، وبالتالى لا جدوى ولا قيمة من مناقشتها مع أهل العقيدة . وهكذا تطوع أخطاء ومتناقضات

---

[٤٠] " حل مشاكل الكتاب المقدس " القس منسى يوحنا ؛ مكتبة المحبة ، ص : ١٥ .

obeikandl.com

الكتاب المقدس فى فكر العقيدة المسيحية إلى الحد الذى تصبح فيه ضرورة لازمة لصحة هذا الكتاب ودليل الصدق عليه [٤١] . هذا وقد عنيت كتب كثيرة ــ من قبل ــ بمثل هذه المناقشات ولم تثمر شيئا حول إعطاء المعنى المراد .

كذلك لم أعن أيضا بما ينبغى أن تكون عليه الديانة المسيحية أو الديانة اليهودية ، بإعتبارهما ديانتين سماويتين ، فقد عنى بهذا أيضا القرآن المجيد ؛ من منطلق أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ واحد ولا متغير ، لذا فينبغى أن تكون جميع الأديان السماوية السابقة على الإسلام هى الأخرى واحدة ولا متغيرة ، وذات دعوة واحدة ، كما جاء فى قوله تعالى فى محكم تنزيله :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ... (١٣) ﴾

(القرآن المجيد : الشورى {٤٢} : ١٣)

وبهذه المعانى الواردة فى هذه الآية الكريمة ، فإن كل ما يقال عن الديانة الإسلامية ، يعنى فى نفس الوقت الديانتين اليهودية والمسيحية معا ، وذلك قبل حدوث التشويهات الحالية فيهما .

ولهذا كانت كل غايتى ــ فى هذا الكتاب ــ هى الإهتمام بالرؤية **الإلهية والأنبياء والنصوص** ، كما تجىء بها الديانتان اليهودية والمسيحية ، وكما يعرضها الكتاب المقدس ويعترف بها أئمة العقيدة نفسها . فربما ــ من جانب ــ كانت هذه الرؤية غير معلومة لدى الكثيرين من أهل العقيدة نفسها ، أو ربما كانوا يتظاهرون بالجهل أمامى عندما كنت أعرض عليهم القضية الكلية للديانة ، أثناء قيامهم بالتبشير فى ، وفى أسرتى أثناء إقامتنا فى الولايات المتحدة الأمريكية . ومن جانب آخر ؛ فإن هذه الرؤية الكلية غير معلومة لدى كثيرين من العامة أيضا ، كما وإنها ليست معلومة لدى لكثيرين كذلك من المهتمين أو المشتغلين بعلم مقارنة الأديان من المسلمين أو الأديان الأخرى أيضا .

---

[٤١] نلاحظ هنا أن القديس يوحنا ذهبى الفم يطلق كلمة " فروق " على " المتناقضات " ، كما يطلق على من لا يؤمن بهذه المتناقضات اسم " أعداء الحق " .

فعلى سبيل المثال نجد أن مؤلف كتاب [٤٢] " **اليوم الآخر بين اليهودية والمسيحية والإسلام** " يتساءل ــ فى كتابة ــ عن علاقة خطيئة آدم بموت البشر ، فنجده يقول فى كتابه المذكور فى صفحة ٧٢ :

" **والتساؤل الذى تطرحه هنا للنصارى هو : ما علاقة خطيئة آدم بموت البشر ؟** "

فالمؤلف كما نرى ، بعد دراسته للمؤلفات المسيحية لم يصل إلى إجابة ما على هذا السؤال ، كما كان يحاول جاهدا ــ فى كتابه هذا ــ إستجداء علماء المسيحية للإجابة على هذا السؤال وعلى أسئلة أخرى مشابهة ولكن دون جدوى من أن يسمع إجابة منهم . فكما نرى من مقدمة الكتاب المذكور ، **أن المؤلف لم يدخر جهدا فى البحث عن هذه الحقيقة أينما كانت** ، وأينما وجدت عند قيامه بإعداد كتابه هذا ، ولكنه لم يحظ بالإجابات المنشودة عليها ، لهذا نجده يقول فى صفحة ٢٠ :

" ... ولم أكتف بمقابلة أسقف عام الدراسات العليا والبحث العلمى بالكنيسة القبطية الذى يمثل طائفة الأرثوذكس ، فذهبت الى مدير **معهد الدومينيكان** [٤٣] للدراسات الشرقية الأب **جورج شحاته قنواتى** ، لأعرف رأى الكاثوليك فى بعض النقاط المثارة فى البحث [٤٤] ، ولم أجد ما كنت أنشد من المعرفة لدى الرجل ، **بل وصرفنى عن البحث فى علم مقارنة الأديان** ، وأحالنى إلى أحد الرهبان الفرنسيين فى المعهد وكانت اللغة عائقا دون حديث الراهب معى ....

وكانت صعوبة العثور على المراجع تشكل عائقا لى فى مواصلة البحث وسبر غور كثير من النقاط المثارة فى البحث فى مجال المقارنة ، فذهبت إلى دير سانت كاترين بجنوب سيناء ــ وهو دير تاريخى قرأت أنه يحوى الكثير من المراجع والمخطوطات ــ فذهبت بخطاب من

---

[٤٢] تأليف الدكتور فرج عبد البارى أبو عطا الله ، وتقديم الأستاذ الدكتور يحى هاشم حسن فرغل . والكتاب إصدار دار الوفاء ؛ الطبعة الثانية : ١٩٩٢ .

[٤٣] الدومينيكانية : هى رهبنة أسسها القديس دومينيك عام ١٢١٥ ، ويلقب المنخرطون فيها باسم " الأخوة الوعاظ " . وقد بدأت نشاطها أول ما بدأته فى مدينة تولوز بفرنسا ، وكانت أول رهبنة كاثوليكية أخذت على عاتقها التبشير بالعقيدة المسيحية . وقد تميز الدومينيكانيون الأولون بثقافة تخطت اللاهوت إلى محاولة للتوفيق بين اللاهوت والفلسفة .

[٤٤] الكتاب المشار إليه فى التذييل رقم ٤٢ السابق ؛ عبارة عن رسالة الماجستير الخاصة بالسيد الدكتور الكاتب.

الكلية ولكن رفض القائمون على الدير والمكتبة أى عون علمى فيما يتعلق بالبحث ، إلى حد أنهم لم يوافقوا أن يتحدثوا معى شفويا فى موضوع الآخرة فى التصور النصرانى ، وقفلت راجعا أبحث عن مصادر اليوم الآخر فى مظانه عند النصارى واليهود ، وبذلت قصارى جهدى فى هذا الصدد . وأسجل أن عدم توافر المصادر اليهودية كانت عائقا لى عن البحث فى كثير من الأمور المتعلقة بالبحث ولقد بذلت كل ما أستطيع من جهد وحسبى ذلك [٤٥] "

(إنتهى)

لذلك كانت الأمانة العلمية ــ لدى ــ تقضى بأن أعرض ما إنتهيت إليه ليستفيد من ذلك من يريد ، وليكون هذا الكتاب شاهد صدق على التجربة الدينية للبشرية مع الديانتين اليهودية والمسيحية ، ولأديان أخرى كتبت ضمنيا هنا ــ فى هذا الكتاب ــ مثل **الديانة البوذية** ، **والطاوية** ، **والهندوسية** ، وديانات أخرى . كما يكون هذا الكتاب شاهد صدق لمن يريد أن يرى الحقيقة بعينيه المجردتين وبنظرة علمية مجردة ومحايدة .

وأود أن أنبه ــ وسوف أكرر هذا دائما ــ إن عرض الحقائق ليس معناه تسفيها لمعتقدات آخرين ، بل هى فى الحقيقة محاولة لتبصير آخرين بواقع الوجود والمصير ، وهى كذلك أمانة علمية تجاه أجيال حالية من جانب ، وأجيال قادمة من جانب آخر . وكما يحتم علينا ذلك أيضا الله كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيكُمْ شَهِيداً .... (١٤٣) ﴾

(القرآن المجيد : البقرة {٢} : ١٤٣)

وما زلت أكرر إن مثل هذا العرض لا يمثل هجوما على دين ما ، بقدر ما هى تجربة لرجل علم فحسب ، رأى أن يسطرها .. فربما لا تسنح لكثيرين أن يمروا بمثل هذه التجارب التى مر بها ، وعلى هذا النحو ، وبالتالى يبقى فكر " **القضية الدينية** " **رمزا على فكر " القضية الغيبية** " التى لا يمكن القطع بصحتها ، والتى يمكن أن تلعب الخرافة والأسطورة فيها دورا رئيسيا فى تشكيلها . كما يمكن أن تظل نظرة الإنسان للدين قاصرة كما هى عليه الآن ، وبالتالى

---

[٤٥] **راجع البند السادس من هذا الفصل .**

سوف تبقى ظاهـــرة تعدد الأديان أمرا واقعا ، قائم ومفروض ــ على البشرية ــ ولا مناص منه .

وأود أن أنبه أصحاب المذاهب الفكرية المختلفة ؛ سواء كانوا علمانيين ، لاأدريين ، ملاحدة ، وجوديين ، شيوعيين ... أو خلافه [٤٦] ، **إلى أن جميع هذه المذاهب الفكرية قد نشأت ونمت في جو من المسيحية الخالصة** ، بل أن معظمها ــ إن لم يكن كلها ــ هى فى الواقع **صور مختلفة من صور التمرد على الكنيسة** ، وعلى الديانة المسيحية ذاتها وأفكارها وصورها ، وخير شاهد على هذا هو الواقع التاريخى للإنسان ، ونصوص المسيحية ذاتها هى التى أدت الى هذا الوضع المتردى للبشرية من تنكر للدين ، والذى سوف نعرض له ، ولهذه المعانى فى الفصل الثالث .

لذا يجب أن يدرك أصحاب هذه المذاهب الوضعية المختلفة ، إلى أن التجربة البشرية الفاشلة مع الديانة المسيحية [٤٧] ، هى التى أدت بهم الى هذا الوضع المتردى تجاة الديانة الحقيقية . وأن ما إنتهوا إليه سببه الرئيسى هو الميراث الدينى الفاشل المتسم بالخرافة والأسطورة ، وتناقض ذلك مع ما إنتهى إليه الإنسان المعاصر ، من تقدم علمى ومنطق رياضى وفيزيائى ، نلمس آثاره المباشرة من واقع التقدم العلمى والحضارى اللذين نعاصرهما الآن .

وربما السلوك الظاهرى لأصحاب هذه المذاهب الفكرية ، هو سلوك من يحترم عقله ، الذى زوده الله به ، حيث لم تستطع هذه الفئات التواؤم مع أو الإحتفاظ بفكر دينى وثنى أو أسطورى على النحو المشار إليه ، لتناقض ذلك مع الفطرة السوية التى أودعها الله فى الإنسان ؛ ولكن ذلك لن يعفيهم من مسئولية البحث عن الحقيقة . فالإنسان يجب أن يعى جيدا إنه مخلوق لهدف محدد وغاية بعينها ، فإذا لم يحقق هذا الهدف وهذه الغاية بعينها فإنه سوف يخسر وجوده ومصيره هو ، وليس وجود ومصير الآخرين .

أما قول البعض بأن الأديان ما هى إلا طرائق مختلفة (**Methodology**) فى أسلوب علاقة الفرد بالله ليس إلا ، فإن مثل هذا القول لا يفقد الدين معناه الحقيقى فحسب ، بل يفقد

---

[٤٦] علمانيون : Secularists / لاأدريون : Agnosticists / ملاحدة : Atheists / وجوديون : Existentialists / شيوعيون : Communists .

[٤٧] يستطيع القارئ ــ هنا ــ الذهاب مباشرة إلى الفصل الثالث من هذا الكتاب لإلقاء نظرة سريعة وتصفحه لبيان ماذا أقصد بهذا المعنى .

كذلك الهوية الشخصية " لله " ــ سبحانه وتعالى عما يصفون ــ كما يهوى الإنسان بهذا الفكر إلى فكر وثنيات التعدد والشرك . فلابد أن يعى الإنسان أن " **الله هو مصدر الدين وليس الدين هو مصدر الله** " ، والفرق بين الصياغتين هو الفرق بين الوحدانية والتعدد ، أو الوحدانية والشرك بـــ " الله " ، وليس هذا فحسب بل يصبح تشكيل العقيدة نفسها وتعريف الله أمورا متروكه للإنسان ، وليست أمورا متروكة لله ..!!

كما وإن القائل بهذا الفكر ، أى الفكر القائل بأن الدين طرائق مختلفة فى أسلوب علاقة الفرد بالله يعكس أيضا عدم دراية الفرد بالأديان . لأن معنى ذلك إنه لا يعلم أن هناك دين صحيح على الساحة البشرية **يُحَدِّد أو يُعَرِّف العلاقة المتبادلة فيه ــ بين الله والإنسان ــ الله نفسه وليس الإنسان** . فمثل هذه العلاقات لا تترك لأهواء الإنسان يحددها هو كيف يشاء . وبالتالى فجميع الأديان ــ بالنسبة للقائل بهذا الفكر ــ متساوية ، من جانب ، كما تحوى قدرا من الخرافة والأسطورة ، من جانب آخر .

إن العلاقة بين الفرد والله ــ كما سنرى حالا ــ ليست علاقة يحددها الفرد ذاته ، فالإنسان مخلوق وليس خالقا ، ولكن هى علاقة يحدد إطارها العام الله ، الخالق المطلق سبحانه وتعالى ، لهدف محدد وغايات بعينها من خلق الإنسان ، ومن خلق هذا الوجود . فالإنسان غير مؤهل فطريا (**By default**) ، لمعرفة الغايات والهدف الإلهى من خلقه ، كمـــا وإنه غير مؤهل فطريا لمعرفة المقاصد الإلهية عن وجود هذا الوجود بوجه عام .

ومن جانب آخر ؛ ينبغى أن يعى الإنسان أن المتكلم فى الدين هو الله بكل كمالاته المطلقة واللامتناهية . فماذا يتوقع الإنسان أن يجد من هذا المتكلم ..؟! بديهى لابد وأن يتوقع ــ الإنسان ــ أن يجد الدين يحوى الحكمة البالغة وغير المتطاولة ، والتى لا تجعل من الإنسان يخر أمامها ساجدا متضائلا **فحسب** ، بل تجعله **أيضا** يتساوى فى هذا مع الوجود المطلق فى التناهى والمحدودية أمام اللامتناهى واللامحدود ..

كما يجب على أصحاب المذاهب المختلفة أن يتنبهوا الى أن إيمانهم بأى مذهب مهما كان .. بعد أم قرب من الدين ، هو ــ فى الحقيقة ــ تدين بديل ، ولكنه لدين خاسر . فالإنسان لا يمكن أن ينفصل عن الله ــ كما سبق وأن ذكرت ــ فى جميع مراحل حياته ؛ ففطرية وجود الله فى

النفس البشرية هى حقيقة تصل الى مرتبة القانون الفيزيائى العام [٤٨] ، ولا جدوى من إنكارها لدى القلة ، وهذه الفطرة هى التى تدفع بالإنسان إلى التدين . كما وأن هذه الفطرة قد بلغت من الإنسان حدا من القوة ، جعلته يقوم بالتضحية بعقله وبمنطقه الفكرى ، كما هو الحال فى معتنقى الديانات الوثنية ، عن أن يقوم بالتضحية بـــ " الإله " مهما كانت وثنيات هذا الفكر ، ومهما كانت تصوراته اللاعقلية واللامنطقية عن الإله . وهذه هى كارثة البشرية ـــ فى كل العصور ـــ تجاه الدين .

هذا وقد أصبح الإعتقاد السائد ، لدى الغرب بصفة عامة ـــ بكل أسف ـــ أن " **الدين والعقل لا يجتمعان** " . وقد أعتبر هذا المنطوق الآن ؛ **مسلمة أساسية لا تقبل الجدل** ، كما أعتبرت فيها أيضا الصحة المطلقة ؛ وبذلك حرم الإنسان نفسه من رؤية الدين الصحيح ، وخسر وجوده ـــ كما سنرى ـــ لأنه لم يحقق الغايات من خلقه . وتحقيق الغايات من الخلق لم يتجاوز معناه عن تحقيق قوانين سرمدية عليا ندركها ـــ نحن بنى الإنسان ـــ عن بعد ، ونخضع لها بطريقة ما أو بأخرى ؛ تماما كما تخضع الشمس والكواكب لـــ " **قانون الجذب العام** " .

كما على الإنسان أن يتنبه إلى أنه عندما يقف أمام " **القضية الدينية** " فهو ـــ فى الواقع ـــ يقف أمام " **قضية أساسيه وجوهرية** " هى " **قضية وجوده ومصيره هو** " . كما وإن وجوده ليس مجرد نكتة أخرجتها الطبيعة ، وروجت لها بقوانين مسخرة لخدمته . بل أن وجوده هو نتيجة حتمية لوجود " **خالق ؛ قادر ؛ متعال ؛ ظاهر ؛ باطن** ؛ .. " يحول فقط جهل الإنسان دون إدراكه لهذا ..

وأرجو أن يتنبه الإنسان ويفيق إلى حقيقة هذا الوجود ، قبل أن يفيق وهو يقف بحواسه وإدراكاته كاملة ـــ كما سنرى ـــ أمام الحقيقة المطلقة وجها لوجه ، عقب موته مباشرة . وفى هذا الصدد يقول الرسول الكريم [٤٩] :

---

[٤٨] مثل هذه القوانين ، هى قوانين ذات طابع إحصائى ، يؤكد صحتها إعتقاد ملايين الملايين أو بلايين البشر التى تؤمن بهذه الفطرة على مر الأزمنة والحضارات . وتأخذ هذه الفطرة الصور المختلفة للدين والتدين لدى الأفراد (أنظر الفصل الثانى) . ولا ينتقص من صحة هذا القانون العام وجود نسبة ضئيلة جدا ـــ من الأفراد ـــ تتنكر لهذه الفطرة . فـــ " قانون التوزيع الإحصائى العادى : The Statistical Normal Distribution Law " ؛ يسمح بوجود قلة منكرة للدين ، كما يسمح ـــ على الجـــانب الآخر ـــ بوجود قلة شديدة التطرف فى التمسك بالدين .

" الناس نيام فإذا ماتوا إنتبهوا "

فهذا هو الإنسان وحقيقته ، **فالإتصالية قائمة بين الوجود والمصير** ، وليس هناك أدنى تضحيات فكرية ، أو تضحيات بوجود قاصر من أجل مصير ممتد ..

إن التدين المستتر أو التدين البديل ، والذى يأخذ جميع صور الإهتمام ، هو التوجه الخاطىء للدوافع الفطرية والنفسية الكامنة فى النفس البشرية للتشبث بالله . إن الإنسان يقوم بالتشبث بأى اهتمامات ، أى اهتمامات قد تختلف وتتباين بدرجة كبيرة حسب درجة نضوج الفرد الفكرى وثقافتـــه ، كما ينبغي أن يؤخذ الجانب الإقتصادى والصحة العامة فى شكل ومضمون هذا الاهتمام . وقد تأخذ هذه الإهتمامات فى الإنسان صورا شتى كالجنون بمطرب أو مطربة ، أو الإدمان لشىء ما ، أو التشيع لحزب ما أو رياضة ما ، أو حتى الإقامة فى معمل للبحث خلف معادلة أو تجربة علمية . فالإنسان فى كل هذا ، لا يدرى إلى أين ينتهى به المقام بهذا الإهتمام ؟ فالغاية النهائية من أى اهتمام .. حتى بعد تحقيقه ، تترك الإنسان فى نفس نقطة الابتداء .. خاوى المضمون ، ليبحث عن إهتمام تال .. أو غاية أخرى .. **ولا يدرى إلى أين تقوده هذه المرة ؟!** لينتهى إلى نفس نقطة الإبتداء .. وإلى نفس الخواء .. وهو لا يدرى إلى أين يتجه فى المرة القادمة .. ما لم يدرك أن الله هو الغاية من وراء كل إهتمام .. ولكن الإنسان لا يعى ..

إن الإهتمام .. هو سكرة الحياة .. والإنسان يتقلب بين إهتمام وآخر .. وهو لا يدرى أنه يبحث عن الله بدون أن يعى .. حتى الموسيقى .. حتى الأغنية .. أصبحت تلك "لصرخة النائهة التى يطلقها الإنسان ــ ذلك العاجز ــ من أعماقه ليتردد صداها فى هذا الفضاء اللانهائى .. لتتبدد وتتلاشى لتعلن عن حيرة الإنسان فى البحث عن الله .. ورغبته فى أن يلقاه .. لتعلن دائما عن حاجته الفطرية إليه .. بدون أن يعى ..!!

---

٤٩ " باب الفتوح " ؛ ص : ١٥٣ . وكذلك أورده الغزالى (٤ / ٢٠) مرفوعا إلى النبى (ﷺ) . ويتأكد هذا المعنى أيضا فى قوله تعالى للإنسان يوم القيامة :

﴿ لَّـقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذا فَكَشَـفْنا عَنكَ غِطاءَكَ فَبَـصَرُكَ اليَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) ﴾
(القرآن المجيد : ق {٥٠} : ٢٢)

[و الغطاء : فى أحد معانيه الغطاء المادى للإنسان أى الجسد/ فبصرك اليوم حديد : أى أنت اليوم نافذ البصر]

﴿ وأنّ إلَى رَبِّكَ المُنتهَى (٤٢) ﴾

(القرآن المجيد : النجم {٥٣} : ٤٢)

كما ينبهنا المولى ــ عز وجل ــ بقوله تعالى :

﴿ يا أيــُّها الإنسانُ إنــّكَ كادحٌ إلى ربِّك كَدْحًا فَمُلاقيه (٦) ﴾

(القرآن المجيد : الانشقاق {٨٤} : ٦)

[كادح إلى ربك : جاهد فى عملك إلى لقاء ربك]

فالإنسان ؛ فى حركته وفى سكونه ، فى ضحكه وفى بكائه ، فى سعيه وفى راحته ، فى علمه وفى جهله ، فى عمله وفى لهوه ، فى صحته وفى سقمه .. هو فى طريق واحد .. هو الطريق إلى الله .. سواء أدرك هذا أم لم يدرك ..!! إن الحكمة الإلهية قد قضت بأن يبتلى أو يختبر هذا الإنسان الحائر فى قضية دون مستوى ذكائه الفطرى بكثير ، فى قضية قد غلفتها البساطة بداية ونهاية ، وهذه القضية .. هى .. **" القضية الدينية "** .

إن الساحة البشرية تغص ــ الآن ــ بالأديان .. التى تكاد تتقارب فيما بينها فى الفكر الوثني ، **وتبقى الديانة الإسلامية** [٥٠] ــ كما سنرى ــ **" الفكر الكلى المطلق المتعالى فوق الحدود البشرية "** أو هى **" النظرية الفيزيائية المتعالية "** ، التى تحوى مضامين كلية آية فى الإحكام والعلم ؛ وهذه النظرية تمثل الصياغة الحقيقية ــ المنطقية والرياضية والفيزيائية معا ــ للإنسان .. حاضر .. ووجود .. ومصير . أو هى الصياغة لذلك الإنسان .. الغاية من الخلق .. ومنتهى المصير .. **وتحوى هذه النظرية جميع الخطوات اللازمة والضرورية للبرهنة على صحتها وصدقها ، شأنها فى ذلك شأن أى نظرية فيزيائية ، أو أى نظرية رياضية أو كلاهما معا . والديانة الإسلامية لا تقع فى الحيز الغيبى الذى يصعب معه التأكد من صحتها وصدقها ، بل على العكس من ذلك ، فهى تحوى كلا من العالم الفيزيائى والعالم الغيبى بين دفتيها ، وحيث يمثل الغيب فيها الإمتداد الطبيعى والمنطقى للعالم الفيزيائى ، بل والأكثر من**

---

٥٠ كما سبق وأن ذكرت ، وسأكرر ذلك على مدى الكتاب ، أن " الديانة الإسلامية ديانة صحيحة " هى " مجرد مسلمة أساسية " أى أن قبولنا لها هو " قبول معلق " . بمعنى أن القبول النهائى لها سوف يتوقف على مدى ما تؤدى إليه ــ هذه المسلمة ــ من نتائج . فإن صدقت النتائج صدقت المسلمة ، وإن بطلت النتائج بطلت المسلمة ، وهذا هو عين ما يحدث فى مجال النظريات الفيزيائية الكبرى ، كما سبق وأن ذكرت فى المقدمة .

هذا فإن الغيب فيها يكاد يكون ملموسا أو محسوسا أيضا . ولا تحوى الديانة أى دور ــ مهما صغر ــ للأسطورة أو الخرافة فى الجانب الغيبى فيها . أما حجم المنطق ــ الرياضى والفيزيائى معا ــ فيها فهو أكبر من أن يحسب ، ويتعدى ذروة الكمال الفكرى للحدود البشرية . والإحاطة الإلهية فى هذه الديانة تجعل الإنسان يقف عاجزا حتى عن إدراك مدى ضآلته ، أمام إدراكات إلهية كلية متعالية ليس للفكر البشرى العهد بها .

٨ ــ موقف الكنيسة من التطور الفكرى

كان يلزم ــ هنا ــ أن أشير فى إيجاز شديد إلى موقف الكنيسة من الاتجاهات الفكرية الحديثة لبداية الفيزياء المعاصرة ، كما كان يلزم أن أشير كذلك إلى موقف الكنيسة من أصحاب الأراء التى حاولت التحرر من الأفكار الوثنية للفكر الدينى . وربما كان هذا أيضا مهما ــ من جانب آخر ــ للأشارة الى أن بداية تاريخ الفكر الفيزيائى الحديث لم يتجاوز الثلاثمائة عاما إلا بقليل .

لقد كان النظام البطليموسى ــ الذى تتبناه الكنيسة حتى منتصف القرن السادس عشر ــ **يشترط** أن الإيمان بالقصد والتدبير الإلهى فى خلق الحياة على الأرض ، **يستلزم** أن تكون الأرض مميزة بين العوالم العلوية والسفلية وكانوا يحسبون أنها لا تكون مميزة على هذا النحو ، إلا إذا كانت الأرض فى مركز الكون كله ، وتقوم الكواكب والشموس دائرة أو ثابتة من حولها ، غير أن هذه الصورة قد تغيرت تماما عندما نشر الفلكى البولندى **نيقولا كوبرنيكوس**[٥١] كتـــابه (**حول دوران الأجرام السماويه حول محورها** : **On the Revolutions of the Heavenly Spheres**) سنة ١٥٤٣ ، والذى يحوى ملاحظات وقياسات عن النظام الشمسى والذى أثبت فيه **كوبرنيكوس** أن الكواكب تدور حول الشمس وليس العكس ، وبذلك أخرج **كوبرنيكوس** الأرض من مركز الكون ، وأطلقها مع الشمس فى أجواء الفضاء ضائعة فى آفاق ليس لها نهاية .

---

٥١ نيقولا كوبرنيكوس **Nicolaus Copernicus** (١٤٧٣ - ١٥٤٣) ، فلكى بولندى ؛ يعتبر أبو الفلك الحديث . وهو الذى أسس النظرية التى تقول بأن " الأرض كوكب متحرك " ، وقال بأن الأرض وسائر الكواكب تدور حول الشمس وحول نفسها . وفى وقت كوبرنيكوس كان أغلب الفلكيون يقبلون بنظرية " بطلميوس : **Ptolemey** " (القرن الثانى للميلاد) التى تقول بأن الأرض ثابتة فى مركز الكون وأن الشمس والقمر والكواكب ، وجميع الأجرام السماوية تدور حولها .

وخالف هذا الكشف **الكوبرنيكى** قواعد الدين المسيحى وخرج على سنن الإيمان به ..؟! ولهذا صودر الكتاب وأجمعت فئات الكنيسة من رومانية ولوثرية على تحريم ومنع تعليمه .

وقد أوحت النظرية الكوبرنيقية فى ذلك الحين (نهاية القرن السادس عشر) إلى **الراهب الدومينيكانى : The Dominican Monk** (وهو الذى يؤمن بعيسى كإله) **جيوردانو برونو** [٥٢] ، بإمكان التوسع فى مراجعة أفكارنا العادية القائمة على الحواس عن المكان والحركة لتصبح هذه المراجعة نقدا شاملا " **للأفق المتناهى** " الذى تقدمه لنا هذه الحواس . فإذا كنا مخطئين فى تصورنا للعلاقة بين الشمس والأرض ، فربما كنا مخطئين كذلك فى تصورنا للكون بأسره الذى نعيش فيه . وربما كان كوننا لا محدودا تشيع فيه " **روح عالم جوهرية واحدة** " ، تحقق الانسجام بين الاتجاهات المتضاربة للعوالم والقوى المتناهية .

وبهذا يتخذ **برونو** عقيدة جديدة لحياته ، هاتفا بأن رؤية الوحدة اللامتناهية تبهج عقله وتحرر قلبه من ذلك الخوف السخيف من الموت ومن المحن الأرضية ، **ومن ثم فإن فلسفة الكون اللامتناهى تحل ــ فى رأيه ــ محل المسيحية بوصفها السبيل الوحيد للخلاص والسعادة . وجاهر برونو بقبوله للنظام الكوبرنيكى ، فعد ذلك منه خروجا وهرطقة على الكنيسة** ، فلجأ إلى جمهورية البندقية ، ولكنه ــ مع ذلك ــ حوكم سنة ١٥٩٤ ، وحكم عليه وألقى فى غياهب السجن ، وبعد أن قضى فيه ست سنوات ، وهو يرفض أن يتزحزح عن رأيه ، رأى أولى الأمر بالكنيسة أن السجن لا يكفى لمعاقبته ، فحكم عليه بالموت حرقا وهو حى بتهمة الكفر والزندقة .

وقد كانت كلماته الأخيره :

" إنكم وأنتم الحاكمون على ، أشد خوفا منى أنا المحكوم عليه ، لقد كافحت .. وهذا كثير .. أما النصر ففى أيدى القدر ، أما كيف يكون حكم القدر فالعصور المقبلة لن تتكر لى هذا ، وستحدد من منا المنتصر ، إننى لم أخش الموت فآثرت الموت على حياة الجبن "

وهكذا حرقت الكنيسة الإيطالية الراهب الدومينيكى جيوردانو برونو وهو حى سنة ١٦٠٠ ، لمجرد إيمانه بأحد الحقائق العلمية البسيطة ، وهى دوران الأرض حول الشمس ..!!

---

[٥٢] جيوردانو برونو Jiordano Bruno (١٥٤٨ ؟ - ١٦٠٠) راهب وفيلسوف ايطالى . أنظر تعريف الدومينيكانية ، فى التذييل رقم ٤٣ السابق .

ولا ننس ــ ونحن فى هذا الصدد ــ قرار **مجمع الكرادلة** فى روما فى ٢٦ فبراير عام ١٦١٦ عندما قرر تحريم كتابات كوبرنيكوس وكبلر [٥٣] وندبوا الكردينال " **بلرمينى Bellarmine** " ليقرع **غاليليو غاليلى** [٥٤] عالم الفلك الايطالى المشهور ، وأبو الأسلوب التجريبى ، لقيامه بتحقيق وتدريس ما جاء بهذه الكتب باستخدام تليسكوبه الذى صنعه بيديه . وقد وجد **غاليليو غاليلى** نفسه مخيرا بين السجن و العذاب ، من جهة ، أو التوقف عن تعليم آراء كوبرنيكوس وكبلر ، من جهة أخرى . والتى تعدهما الكنيسة آراء هرطقية وفاسدة . وصدع غاليليو للأمر ، إذ ما زالت صورة برونو وهو يحرق حيا قائمة فى ذهنه .

ثم استدعى غاليليو مرة أخرى فى فبراير سنة ١٦٣٣ ، بعد أن أصبح شيخا طاعنا فى السن ، للمثول أمام مجمع الكرادلة ، ليتلقى قرار محكمة التفتيش ليعلن توبته وإرتداده عن أفكاره ، ويمنع من الكلام عن حركة كواكب المجموعة الشمسية ، ودوران الأرض حول الشمس والتى أقام عليها الدليل بإستخدام تليسكوباته .

وخرج غاليليو الشيخ الطاعن فى السن من المحكمة بعد أن صودرت كتبه وحكم عليه بالسجن مدى الحياة ، ولم تشفع له شيخوخته فى تخفيف الحكم عليه . وقد روى عنه إنه قال وهو خارج من المحكمة " **ومع ذلك فهى تدور** " مشيرا إلى الأرض . ووضع غاليليو فى سجنه فى آرشترى **(Arcetri)** ، حيث توفى فيه فى ٨ يناير سنة ١٦٤٢ ، وهو مكفوف البصر تماما .

وهذا هو موقف الكنيسة من الأفكار العلمية أو الفكر المنطقى ، وربما كان هذا الموقف معلوم لدى الكثيرين ، ولكن كان يلزم الإشارة إليه ــ كما سبق أن ذكرنا ــ للوقوف على التواريخ الخاصة ببداية الفكر الفيزيائى الحديث ، والذى لم يتجاوز الثلاثة قرون إلا بقليل .

---

[٥٣] يوهانس كبلر : Johannes Kepler (١٥٧١ - ١٦٣٠) فلكى ورياضى ألمانى ، وهو مكتشف قوانين الفلك الثلاثة التى تحكم حركة الكواكب حول الشمس ، والمعروفه باسمه الآن . وقد صدر القانونين الأول والثانى فى كتابه " الفلك الجديد " سنة ١٦٠٩ ، ثم إكتشف القانون الثالث بعد ذلك بعشرة أعوام .

[٥٤] غاليليو غاليلى : Galileo Galilei (١٥٦٤ - ١٦٤٢) فلكى وفيزيائى إيطالى . يعتبر أبو المدرسه التجريبيه . صنع أول تليسكوب فلكى عام ١٦٠٩ .

وأود أن أشير هنا إلى أن الوضع غير المتميز للأرض والشمس ، والعلاقة بينهما وكذا الشكل النهائى للكون كما ندركه اليوم من خلال الفيزياء المعاصرة ، هى إحدى الحقائق العابرة التى ذكرت فى القرآن المجيد ، ليس فقط كما جاء بها العلم الحديث ، بل تعدى هذا بإضافات جوهرية تماما لصيغة العلاقات الجذبية المتبادلة بينهما ، تتعدى مفهومنا الحالى والنابع من الفكر الفيزيائى المعاصر من خلال كل من النظرية النسبية العامة ، وميكانيكا الكم [٥٥] .

والغريب عندما كان أعضاء الكنيسة يدعون إلى النظر إلى أقمار المشترى من خلال تليسكوب غاليليو ، كانوا يرفضون ذلك ، وإذا نظروا ورأوها قالوا إنها من خداع الحواس أو من خداع الزجاج ؛ وإذا تأكدوا من وجود هذه الأقمار قالوا إنها غير ظاهرة للعين المجردة ، وبالتالى فلا يمكن أن تكون لها أى تأثير على الأرض ، إذن فهى غير موجودة . وهذا هو دأبهم عند الإصرار على الرفض المطلق .. مهما كانت ثبوت الأدلة وقطعيتها . وبديهى إن هذا أيضا يعكس مفهوم الإيمان لديهم ، فهم يصرون على قبول الدين مهما كانت مضامينه ، ومهما كانت التضحيات التى يقدمونها ، حتى وإن كانت التضحية بالعقل ذاته .

وبكل أسف ، إن مثل هذا السلوك يعتنقه كثيرون الآن ، كما كان يعتنقه كثيرون فيما مضى . وهو تكرار لموقف الإنسان تجاه الأنبياء عندما كانوا يدعون أقوامهم إلى الحق ، وإلى الإتجاه إلى المعرفة الصحيحة لله ــ سبحانه وتعالى ــ كما جاء فى قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ﴾

(القرآن المجيد : نوح {٧١} : ٥ – ٧)

[فرارا : تباعدا ونفارا عن الإيمان / استغشوا ثيابهم : بالغوا فى التغطى بها كراهة لى]

إن إلغاء العقل وإتباع الهوى ينحدر بصاحبه الى أقصى درجات الهبوط الفكرى ، ولهذا ينبهنا الله ــ عز وجل ــ إن مثل هذا السلوك ينحدر بالإنسان الى درجة أدنى من درجة البهائم ؛ كما جاء فى قوله تعالى :

---

[٥٥] أنظر الفصل الثانى ، فقرة (١١. ٦) ، لبعض التفاصيل العلمية .

﴿ أرأيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إلَهَهُ هَواهُ أفَأنْتَ تكُونُ عَلَيْهِ وَكيلاً (٤٣) أمْ تَحْسَبُ أنَّ أكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أو يَعْقِلُونَ إنْ هُمْ إلا كَالأنْعام بَلْ هُمْ أضَلُّ سَبيلاً (٤٤) ﴾

(القرآن المجيد : الفرقان {٢٥} : ٤٣ – ٤٤)

وبهذه الآيات يلقى الله ــ سبحانه وتعالى ــ الضوء على الجانب النفسى لسلوك الإنسان ، لعله يتنبه الى حقيقة سلوكه وتصرفاته ، ولعله يعى هذا لتدارك موقفه قبل فوات الأوان .

وما أكثر التنبيهات المتكررة للإنسان وحثه على استخدام عقله الذى أهله الله به فطريا . **وما قيمة العقل للإنسان إذا لم يهديه هذا العقل إلى المعرفة الحقة بحقيقة وجوده ، وإلى المعرفة الحقة بحقيقة الله خالقه ، سبحانه وتعالى** . وفى هذا الصدد ينبهنا المولى ــ عز وجل ــ إلى ضرورة عدم الإتباع الأعمى لآباء جهلة ولا يعقلون شيئا ، فإن هذا يجعل الإنسان فى حكم الأبكم والأصم والأعمى ، وفوق ذلك فهو لا يعقل ..

﴿ وَإذَا قِيلَ لَهُمُ إتَّبِعُوا مَا أنْزَلَ اللَّهُ قالوا بَلْ نَتَّبِعَ ما ألْفَيْنَا عَلَيهِ ءاباءَنَا أوَ لَوْ كانَ آباؤهُمْ لا يَعْقِلونَ شيئاً ولا يَهْتَدُونَ (١٧٠) ومَثَلُ الَّذينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الذى يَنْعِقُ بما لا يَسْمَعُ إلا دُعاءً ونِداءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٧١) ﴾

(القرآن المجيد : البقرة {٢} : ١٧٠ – ١٧١)

٨ ــ الخاتمة

إننا نقف الآن في بداية القرن الواحد والعشرين ، وما زال أغلب الناس ينظرون الى الدين بعين الريبة والشك ، وهل " **القضية الدينية** " هى " قضية حقيقية " فعلا أم هى مجرد " **قضية وهمية من صنع خيال الإنسان** " ، تعكس ضعفه المتناهى أمام هذا الوجود غير المتناهى . أو أن الدين هو مجرد المحاولة المبذولة من جانب الإنسان لتبرير وجوده غير المدرك فى هذا الوجود المدرك وغير المدرك معا ....

إن كلنا يعلم أن هذا الصرح العلمى الشامخ الذى نعاصره اليوم ، قد تم بناؤه بتعاون بنى الإنسان ، ليس فى زمن معين فحسب ، وليس فى حضارة معينة فحسب ، بل قد تم بناؤه على مر

الأزمنة والسنين والحضارات .. شاركنا نحن جميعا ــ بنى الإنسان ــ فى هذا البناء .. وجميعنا الآن يتمتع بنتائج عمل آخرين ليس لنا بهم علاقة مباشرة . لقد تعود الإنسان على قبول العطاء على المستوى العلمى ، ولكننا لم نتعود بعد على قبول العطاء على المستوى الدينى ..!!

إننا شركاء فى هذا الوجود ، ولقد تشابكت الأيدى اليوم للبحث عن الحقيقة ، ولكن اقتصر ذلك على ظاهر محدود جدا من هذه الحياة الدنيا ، وأصبح لزاما علينا ــ مع التطور الحالى ــ أن نخطوا الخطوة التالية لنتعدى ذلك المحدود إلى هذا الوجود اللامحدود ، وخصوصا بعد أن تحسن كثيرا ما لدينا من إدراك .. وأصبحت رؤيا الإنسان أكثر شمولية وموضوعية عن ذى قبل .

إن العدل الإلهى قد قضى بأن تكون " القضية الدينية " فى متناول الجميع ، فليس عدلا أن يحاسب المرء على ما لا يطيق الحكم عليه ، أو ما لا يستطيع الوصول إليه فكريا ، أو فيما هو وراء إمكانياته العقلية ، من منطلق قوله تعالى :

﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللـّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا .. (٢٨٥) ﴾

(القرآن المجيد : البقرة {٢} : ٢٨٥)

﴿ وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتابٌ يَنْطِقُ بِالحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٢) ﴾

(القرآن المجيد : المؤمنون {٢٣} : ٦٢)

لقد زود الله الإنسان بقدر كاف من العقل والمنطق والملكات الفكرية اللازمة لإدراك تلك الحقيقة البسيطة ، فهل فعل الإنسان ذلك ..؟!

إن " القضية الدينية " ليست " قضية غيبية " كما نشأنا على هذا الإعتقاد الزائف ، بل أن " القضية الدينية " ــ كما سنرى ــ هى " قضية يقينية " بالمعنى الحرفى والكامل للكلمة ، يكون فيها الإنسان .. وجوده .. حاضره ومصيره .. علمه وفيزياؤه وكونياته .. ألخ ، جزئية صغيرة منها . ولإدراك ذلك مطلوب فقط التحرر من وثنيات الميراث الدينى ــ إن وجد ــ والتمسك بالعقل وما إنتهى إليه الإنسان من منطق علمى تأكدت صلاحياته على مر العصور والحضارات ، وثبت ثبوت مطلق صحة صدقه من واقع التقدم العلمى والتكنولوجى الذى نحياه ..

كما وإن على الإنسان أن يتنبه إلى أن " **القضية الدينية** " ليست " **قضية صراع بين حضارات مختلفة** " كما يرى كثيرون من محدودى النظر ، بكل أسف ، كما وإنها ليست أيضا " **قضية تبشيرية** " فى أديان تتخبط فى تحديد هوية أصنامها ، وهى أيضا ليست " **قضية سياسية** " لكسب أتباع ما أو أرض ما . إنما هى ــ فى الواقع ــ قضية أعم وأشمل من هذا المفهوم القاصر ، فهى ــ فى الحقيقة ــ " **قضية وجود الإنسان ومصيره هو** " . هى قضية وجود ذلك الإنسان الضعيف الذى يحيا على سطح هذا الكوكب المحدود ، كوكب الأرض ، ذلك الإنسان الذى سرعان ما سيدب فيه الفناء وتدركه الشيخوخة .. هذا إن لم يدركه الموت قبل ذلك .. ثم يغادر هذه الحياة الى اليقين الكامل .. ليقف وجها لوجه أمام الحقيقة المطلقة .. حيث يكون هو الخاسر الوحيد لنفسه فى هذا الوجود .. إذا لم يتنبه إلى حقيقة الغايات من هذا الوجود .. وما سوف يؤول إليه من مصير ..!! إن على الإنسان أن يعى ويتنبه ، ألا تصل به درجة الحمق المحلى .. الى أن يطعن نفسه بنفسه .. ويهلك نفسه بنفسه .. بدون أن يدرى .

فمرفوض .. مرفوض .. مرفوض .. أن يقول الإنسان :

﴿ ... حَسْبُنَا مَا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءنا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا ولا يَهْتَدُونَ (١٠٤) ﴾

(القرآن المجيد : المائدة {٥} : ١٠٤)

[وهو ما يعنى ؛ أنه لا يجوز إتباع الأباء إن كانوا على جهل ، أو كانوا فى ضلال مبين]

إن إدراك الحقيقة سهلة المنال ، وما على الإنسان إلا أن يتجاوز جهله المحلى ، وينصت إلى صوت العقل .. وصوت العقل فقط هو الذى يمكن أن يقوده الى اليقين الكامل .. فالعقل الذى أودعه الله فينا هو الميزان الدقيق الذى يمكن به أن نفرق بين الحق والباطل ، وهو الذى ميز به الله ــ سبحانه وتعالى ــ الإنسان عن الحيوان .

إنه لم يعد من المقبول منطقيا ، وبعد أن وصلنا الى كل هذا الكم التراكمى الهائل من العلم .. ونحن نقف في بداية القرن الواحد والعشرين ، ولم يعد بيننا وبين النظريات الشمولية إلا خطوة على وشك أن نخطوها ، لم يعد من المقبول إطلاقا بعد كل هذا .. أن نقف تجاه الدين هذه الوقفة التى تتسم بالقصـــور المطلـق ، والنظرة الوثنية ، متأثرين فى ذلك بفكر تجربة محدودة ، لا ينبغى أن ينسحب حكمها إلا على مساحة محدودة وضيقة من التراث الفكرى للبشرية . لذلك لا ينبغى لنا أن نقوم بتعميم نتائج تجربة خاطئة بحمق زائد فى كل قطاعات

الحقيقة ، لنوصد طـــريق المعرفة الحقة أمام أنفسنا ونحن أحوج ما يمكن إلى المعرفة اليقينية في هذا الإتجاه .

إن الإخوة البشرية تحتم علينا ـــ كما يحتم علينا ذلك أيضا الله ـــ في أن نمد يد العون الى بعضنا البعض ، وأن نقف موقف صدق مع أنفسنا ، حيث تكون المصارحة هي غايتنا ، والعلم هو هدفنا ، وتبصرة بعضنا البعض منهاجنا ، قبل فوات الأوان .. ويكون الخاسر الوحيد في هذا الوجود .. هو ذلك الإنسان .. الظلوم لنفسه .. الجهول بحقيقة وجوده ..

يا أيها الناس ..

﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (١٠٤) ﴾

(القرآن المجيد : الأنعام {٦} : ١٠٤)

* * * * * * * * * * * * * * * * *